

وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلة
من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف

و . نكولز

نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد عابدين

الدار السودانية

الخرطوم ص ب ٢٤٧٣

الدار السودانية

للطباعـــة والنشر والتوزيع

الخرطوم - شارع أبوسن - عمارة حسن عبد الرحمن

✉ ٢٤٧٣ ☎ ٨٠٠٣١ ✆ توزيعدار

٣٠٠ مليم

الشايقية

وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلة
من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف

و . نكولز

نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد عابدين

الدار السودانية
الخرطوم ص ب ٢٤٧٣


مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE

مقدمة المترجم

رأيت أن أنقل هذا الكتاب إلى قراء العربية ، وهو كتاب طبعه مؤلفه مستر نكولز سنة ١٩١٣ ، وصار منذ ذلك الوقت مرجعاً لكل من يبحث في قبائل الشايقية وتاريخها . وقد جمع فيه الروايات الوطنية التي يرويها الشايقية أنفسهم ، وقارن بينها وبين أقوال المؤرخين والرحالة الذين زاروا بلاد الشايقية أو تحدثوا عنها . وقد تقبل بعض هذه الروايات ، وشك في بعضها . غير أنه مما يعيب الكتاب — في نظرنا — بعض أقوال جمح بها قلمه ، فأساء فيها الحكم أحياناً ، وأخطأته لباقة العبارة أحياناً أخرى . وقد علقنا على هذه الاقوال في مواضعها من هوامش الكتاب .

أضف إلى ذلك أن الكتاب لم يتعرض لجوانب من تاريخ الشايقية كالبحث في أصل الشايقية ، وهـذا موضوع شغل الذين كتبوا عن الشايقية بعد زمن تأليف هذا الكتاب . ونرى تماماً للفائدة أن نعرض لأهم الآراء في ذلك الصدد . وبين أيدينا أربعة آراء في أصل الشايقية نلخصها فيما يلي :

١ - يرى ترمنجهام (الاسلام في السودان ص ٨٨) أنهم ربما كانوا أصلًا من البجة . ويعتمد في هذا على ما رواه المقريزي عن ابن سليم الأسواني من أن الزنافج ، وهم فريق من البجة ، هاجروا في عصور قديمة إلى بلاد النوبة واستقروا هناك . واحتفظوا بلغتهم الخاصة فلم تختلط بلغة النوبة . ثم لاحظ ترمنجهام أن جميع أسماء قبائل الشايقية تنتهي بالمقطع (آب) وهو مقطع لفظي مأخوذ من لغة البجة .

وزعم ترمنجهام هذا ، في نظرنا ، لاينهض به دليل . فان انتهاء اسم القبيلة بمقطع من لغة البجة ليس دليلًا على أن القبيلة بجاوية الاصل . ولا سيما إذا عرفنا أن هذا المقطع يدخل في أسماء كثير من القبائل العربية التي تسكن في أقاليم مختلفة من السودان .

٢ - ويرى ماكمايكل (تاريخ العرب في السودان ج ١ ص ٢١٣ وما يليها) أنه من المحتمل أن يكون فريق من هذه القبيلة كان في الاصل من بقايا الجنود المرتزقة من الترك والألبان والبشناق الذين كانوا يؤلفون الحاميات والحرس في بلاد النوبة منذ غزو السلطان سليم العثماني (١٥١٧ م) وقد استقر عدد منهم في النوبة .

وقد استبعد الباحثون اليوم هذا الرأي . فقد رده كراوفورد (في مملكة الفونج في سنار ص ٤٤) فذكر أن هنالك اعتراضاً

قوياً ضد هذا الرأي ، وهو أن سليماً العثماني لم يغز هذه المنطقة ولم يقم عليها حراسا ولا حاميات . وأن المناطق التي قامت على حراستها فئات من هؤلاء ، وهي الواقعة بين الشلالين الأول والثالث ، لم تنتج سلالة من السكان عندها من الخصائص ما نجده عند الشايقية . ورد الدكتور عوض (السودان الشمالي ص ١٨٥) هذا الرأي بقوله : (مما يؤسف له أنه ليست لدينا دراسة للشايقية بواسطة رجل من علماء الأجناس حتى نستطيع بالدراسة العلمية المقاييس ، وعلى الأخص مقاييس النسبة الرأسية أن نحكم على وجه الشبه بين الشايقية وأولئك الجنود الذين إذا كانوا حقيقة لهم نسب ألباني أو تركي أو بشناق فان هذا كفيل برفع النسبة الرأسية . ومثل هذا الاختلاط يتنافى مع ما نعرفه من صفات الشايقية الجسدية ، كنحول الجسم والوجه وشكل العيون . أما بروز الانف فمعروف لدى كثير من العرب حتى في السودان نفسه) .

٣ - يرى ڤرن (وهو رحالة ألماني زار السودان في خلال سنتي ١٨٤٠ ، ١٨٤١) أن الشايقية ربما كانوا في الاصل طبقة من محاربي المصريين القدماء أو جماعة من سلالة المحاربين الثائرين الذين تحدث عنهم هيرودوت المؤرخ فذكر أنهم كانوا جنوداً في جيش فرعون ثم ثاروا ورفضوا العودة إلى مصر بعد أن هاجروا منها إلى الجنوب . وكان هذا في عهد أبسماتيك . وزعم هيرودوت

أن عددهم كان مائتين وأربعين ألفاً على وجه التقريب ، ويقول بلينوس المؤرخ (٧٠ م) أنهم فروا من وجه أبسماتيك وسكنوا في مناطق قريبة من مروى القديمة (راجع بحثا قدمناه للجمعية التاريخية السودانية بعنوان « ميلاد سوبا » المجلد الأول ـ الجزء الثاني من أعمال الجمعية) .

ويؤيد فرن هذه النظرية بعدة ملاحظات : (١) موقع بلاد الشايقية قريباً من مروى القديمة التي حموها من غارات برابرة الجنوب (٢) والنزعة العسكرية المتأصلة في نفوس الشايقية . (٣) وكونهم غير خاضعين لزعيم واحد ، بل كانوا دائماً يعيشون أحراراً في ظل ملوك صغار . ولعل الأسر الحاكمة فيهم يمثلون طبقة السادة المصرية القديمة التي لم تعترف بسلطان أحد سوى ملوك أثيوبيا . فلما زال ملكهم صاروا أمراء مستقلين كما حدث لقواد الاسكندر المقدوني بعد وفاته (٤) وعادة الشايقية في تقصير شعر رأسهم وتلك عادة مصرية تخالف العادة السائدة عند العرب والنوبيين .

ويضيف ماكما يكل ملاحظة أخرى تؤيد نظرية فرن وهي (٥) ما شاهده الرحالة الفرنسي كايو من أن الشايقية في اقليم الجزيرة يقيمون نصباً على صورة إنسان يعين حدود الجهات التي غزوها . ويقول ماكما يكل أن هذه العادة بلا شك مقتبسة من الفراعنة الذين كانوا يقيمون تمثالاً على حدود فتوحاتهم (عوض ١٨٤ ، ماكما يكل ١ : ٢١٣ وما يليها) .

٤ – وترى الروايات الوطنية التي يتداولها الشايقية أنفسهم أنهم من أصل عربي . وهذا الرأي لم يقم ضده دليل قوي إلى الآن . فقد رأينا في الرأيين الأول والثاني ضعفاً ظاهراً . أما الرأي الثالث (رأي الرحالة الألماني ڤرن) فاننا لاننكر ما فيه من وجاهة ، وهو في الوقت نفسه لايتنافى مع عروبة هذه القبيلة بل يؤيدها . فقد أشار فرن إلى هذه الطبقة من المحاربين الثائرين الذين هاجروا إلى الجنوب من مصر القديمة . والعلماء مختلفون في أصل هذه الطبقة . وقد رجحنا في بحثنا « ميلاد سوبا » الذي أشرنا اليه فيما سبق ، أن هذه الطبقة كانوا من عرب الأراميين الذين كانوا يعملون في مصر جنوداً مرتزقة في عهد بسماتيك الثاني وكانوا قد عهد اليهم في محاربة المناطق الجنوبية (ص ٢ – ٤) . وعلى هذا يكون رأي ڤرن في الواقع مؤيداً للروايات الوطنية الشايقية ، إذ تكون القبيلة في الأصل ، من هؤلاء العرب الذين هاجروا من مصر الفرعونية بعد أن استقروا فيها فترة من الزمن عملوا فيها في جيش فرعون .

فإذا وجدنا في عادات القبيلة آثاراً مصرية ، فمن اليسير ردها إلى تلك المؤثرات المصرية التي عملت في هؤلاء العرب في خلال اقامتهم في مصر . فلما هاجروا إلى الجنوب حملوا معهم هذه المؤثرات .

ولسنا ننكر مع ذلك أن مجاورة الشايقية لعناصر إفريقية وحامية في موطنهم الجديد ، ودخول هجرات عربية جديدة بعد الاسلام في السودان واختلاط أصولهم بدماء عربية حديثة جاءت اليهم من الشمال أو الشرق - كل ذلك قد أحدث آثاراً في عاداتهم ولغتهم على مر العصور ، ولكنهم فيما يظهر لم يسمحوا للسلالات الجنوبية بأن تمتزج بدمائهم ، لذلك احتفظوا بلون بشرتهم الذي يقرب من لون المولدين .

الخرطوم في نوفمبر ١٩٥٦

عبد المجيد عابدين

مقدمة المؤلف

كنت قصدت في بادىء الأمر إلى تأليف واف عن تاريخ السودان الشمالي من العصر المسيحي إلى وقتنا هذا . وكان من برنامج هذا البحث أن يتألف من ثلاثة أقسام : الأول الممالك النوبية . الثاني : الفونج والشايقية . الثالث : السيطرة التركية .

ولكن الزمن الذي أتيح لي لم يكن كافياً لتنفيذ خطتي هذه .

ولذلك عقدت النية على أن أحصر جهدي في القسم الثاني من البحث الآنف الذكر . وكانت النتيجة هي هذا الكتيب الذي أرجو أن يحقق فائدة كافية في تاريخ أشهر ركن من أركان السودان ، حتى يتسنى في المستقبل القيام بأبحاث أخرى مستمدة من الروايات التاريخية المسجلة عن هذه المنطقة .

ولما كانت المخطوطات الوطنية قد أتلفت إتلافاً يكاد يكون تاماً في أثناء ثورة الدراويش ، لم يكن بين يدي المؤرخ إلا مادة يسيرة يستمد منها البحث ، وإلا أن يعتمد اعتماداً كبيراً على الملاحظات العابرة التي دونها الرحالة الذين زاروا هذه البلاد أو مروا قريباً منها .

والروايات الوطنية التي لاتؤيدها الوثائق التاريخية ، لا يمكن الاعتماد عليها ، فهي تتطلب من الباحث غربلة وتمحيصاً . وذلك بسبب تلك الخيلاء التي هي غريزة متأصلة في أهالي السودان .[1]

فكل فرد مواطن ، مهما يكن أصله الذي ينتسب اليه ، يحاول أن يثبت أنه ينحدر من أشرف جماعه عربية ، وأن قبيلته التي ينتمي اليها تتبوأ مكانة ممتازة ، وتلعب دوراً كريماً في تاريخ السودان .

وختاماً أقدم شكري الخالص للكابتن أ . س . جاكسون ، والكابتن ج . س . سايمس ، ومحمد بك السيد للمساعدة القيمة التي قدموها لي .

و . نكولز

الأبيض – كردفان ١٩١٣

---

(١) هذا حكم جائر على أهالي السودان . ولو أنصف الباحث لقال : إن الروايات الوطنية بما فيها من مبالغات أحياناً موجودة عند كل الشعوب دون استثناء ، وإنها تؤلف مجموعة التراث القومي الذي يعتزون به ، ويتخذون منه مثلا عليا للبطولات بأنواعها . وإذا فرضنا أن شعباً قد خلا من الروايات الوطنية ، وهذا بعيد جداً ، فهو شعب لا مجد له ولا تراث . ولسنا بحاجة إلى أن نذكر هذا المؤلف بأنه قد استغل في بحثه هذا تلك الروايات التي يعيبها ويعيب أهلها (المترجم) .

الفصل الأول

« سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج »

تعد الشايقية من أهم قبائل السودان الشمالي من وجهة النظر التاريخية . وترتبط هذه القبيلة بتاريخ السودان الشمالي ارتباطاً وثيقاً من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر . ولا يعزى هذا الارتباط إلى الموقع الجغرافي وحده بل إلى ما يتصف به من نزعات حربية ، وإقدام ، ومهارة واستبسال في الشؤون العسكرية .

والشايقية هم أبناء شايق بن حميدان [١] بن صبح أبو مريخة وهو الذي تزعم رواياتهم ، أنه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب إلى السودان . وهم ذوو قرابة وثيقة بقبائل الجميعات والجوامعة وفروعها ، ويتصلون بالبديرية نوع اتصال وكلهم ينتمون إلى المجموعة الجعلية .

---

(١) الانساب التي حصلنا عليها تجمع على هذه النقطة .

وسيجد القارىء في الملحق الأول في آخر البحث ، جدولاً يوضح العلاقات بين القبائل التي تمثل جزءاً من الهجرات العربية الكبرى التي أحدثتها القبائل العربية المهاجرة إلى السودان من بلاد العرب من طريق البحر الأحمر في غضون القرون : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

دخلت هذه القبائل السودان من طريق سواكن ومصوع ، واتجهب غرباً وجنوباً صوب نهر النيل ، وتمسك البدو منهم بحياة البداوة فتنقلوا في البلاد الغنية الواقعة بين العطبرة والنيل الأزرق . أما القبائل الأكثر استقراراً فقد استوطنت البلاد الممتدة على ضفتي النيل بين الشلالين الرابع والخامس حيث شغلوا حيزاً فاصلاً بين المملكتين المسيحيتين في ذلك الحين ، مملكة علوة الجنوبية ، ومملكة مقرة الشمالية [٢] .

كانت هاتان المملكتان ، حين قامتا في بادىء أمرهما ، قوتين عزيزتي الجانب ، متحدتين . لذلك وقفتا عقبة كأداء في سبيل الفتح الاسلامي للسودان . ولكنهما لم تلبث الخلافات الداخلية أن فتكت بوحدة كل منهما ، فانقسمت إلى عدة طوائف صغيرة متعادية متنابذة ، وذلك يعزى إلى الاهمال الذي عانته كل منهما على يد الكنيسة الكبرى التي دانوا لها ، وهي كنيسة الاسكندرية ،

---

(١) راجع في تاريخ مماليك النوبة المسيحية كتاب كاترمير :
Memoires Historiques Vol. 11

في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما يعزى إلى انتشار الاسلام السريع .

ولهذا وقعت المملكتان فريسة سائغة في أيدي العرب ، وسرعان ما التأمت روابط العرب في هذه المنطقة ، بحكم صلات القربى التي تجمع بينهم ، وبحكم روابط الدين المشترك .

وفي نهاية القرن الخامس عشر انضوت هذه القبائل العربية المختلفة تحت لواء قائد واحد ، هو عبد الله جماع ، من عرب القواسمة وشيخ قبيلة العبدلاب ومؤسسها .

وفي بداية القرن السادس عشر تحالفت القبائل العربية المتحدة بقيادة عبد الله جماع ، مع قبيلة الفونج الشبيهة بالزنوج [٣] وكانت هذه القبيلة قد قدمت من الجنوب بقيادة ملكها عمارة دونقس ، وصارت ذات قوة ونفوذ في تلك المنطقة .

تكاتفت جهود هذه القبائل المتحالفة على غزو مملكة علوة المسيحية [٤] ، فغزوها وقضوا عليها [٥] ووقعت حدودها ، من

---

(١) أورد ما كايكل خلاصة للآراء المتعلقة بأصل الفونج في كتابه (قبائل كردفان الشمالية والوسطى) .

(٢) كانت عاصمتها سوبة على النيل الازرق .

(٣) هذا ما أوردته مخطوطة تاريخ سنار (انظر الفصل الثاني) ولكن الاقرب أن انحلال الممالك المسيحية قد حدث ببطء وبالتدريج .

اربجى على النيل الأزرق إلى جبال قرّي [٦] في أيدي العرب .

ففي العقد الأول من القرن السادس عشر ، استولى الفونج على كل البلاد الواقعة في الجنوب بين النيل الابيض وحـــدود الحبشة إلى نهر الرهد . في حين كان العرب الذين خضعوا للفونج سادة على منطقة وادي النيل الممتدة من نهر الرهد إلى الشلال الرابع .

أما مملكة النوبة الشمالية ، فقد صارت في ذلك الوقت في مأزق حرج . فقد ظلت أعواماً طوالاً مشغولة في حروب مستمرة وخصومات مع قبائل البجة في الشرق ، والفور في الغرب . ثم جاء الأتراك العثمانيون فغزوها بقيادة السلطان سليم الذي كان قد غزا كل المناطق الواقعة من أسوان إلى شلالات حنك [٧] ، واحتلها جميعاً .

وخرجت مملكة النوبة الشمالية من ذلك كله مضعضعة قد أنهكتها المنازعات المستمرة ، وقسمها وأضعف شوكتها ذلك الصراع الداخلي الذي وقع بين أمرائها الكثيرين ، وبينهم وبين المسلمين حتى غزتها القبائل العربية المتحدة بقيادة مشايخ العبدلاب الذين كانوا يعملون لحساب سلطنة الفونج في سنار .

---

(١) عند الشلال الخامس .

(٢) وهي الحدود الشمالية في الوقت الحاضر لاقليم دنقلة ، أعني الشلال الثالث .

وسقطت مملكة دنقلة ، وتهاوى معها آخر ما خلفته المسيحية في السودان .

وأقبل أهالي هذه المملكة المنحلة على الاسلام ، وسمح لهم بالبقاء في بقاعهم ، واندمجوا شيئاً فشيئاً في الغزاة حتى صار في الوقت الحاضر ، من أصعب الأمور أن يميز المرء بين النوبي والعربي .

أضف إلى ذلك أنه ليس أحد من أهالي النوبة ، يعترف طواعية بأنه نوبي الأصل ، ولكنهم يتنافسون جميعاً في الدعوى بأنهم ينتمون إلى أشرف دماء في الحجاز[1] .

على أن عدد الذين بقوا في تلك البقاع كان كبيراً ولا سيما في الشطر الشمالي من المملكة ، ويدلنا على هذا أن العرب من الغزاة والمهاجرين قد اصطنعوا لغة النوبة ، وأن اللسان النوبي لا يزال حياً إلى اليوم ، وأن مايقرب من ثلثي مديرية دنقلة يتخذون النوبية لغة عامة بينهم .

أما أولئك النوبيون الذين رفضوا أن يهجروا دينهم القديم ، فقد هربوا إلى جبال كردفان ودارفور حيث ارتدوا سريعاً إلى حالتهم الاولى من الوثنية والتوحش[2] .

---

(١) فمثلا سكان المحس النوبيون يزعمون أنهم من بني أمية .

(٢) يتكلم سكان عدد من جبال النوبا في كردفان لغة تختلف قليلاً عن النوبية الدنقلاوية . أنظر لبسيوس في كتابه بالالمانية عن نحو=

ولم يكد ينتهي القرن السادس عشر حتى كان وادي النيل كله من شلالات حنك إلى نهر الرهد قد خضع لملك الفونج في سنار من طريق مشايخ العبدلاب في قرّي .

في ذلك الوقت كانت مملكة دنقلة قد تضعضعت وانقسمت إلى ثلاث دور رئيسية (جمع دار) ، وسميت على أسماء القبائل الكبرى التي سكنت فيها . وكانت كل دار منها منقسمة إلى عدة رياسات أو ممالك فرعية صغيرة كما يحلو لهم أن يسموها ، كل منها يرأسها أمير خاص أو ملك .

١ – فأولى هـذه الجماعات ، في أقصى الشمال ، هي التي أسميها (دار الجوابرة) [١] – والجوابرة هم أكثر القبائل عدداً

=اللغة النوبية (برلين ١٨٨٠) فقد أورد في المقدمة جداول للمقارنة بين اللغات المستعملة في جبال كارجو وكولداجي والنوبا وكلفان وبين اللغة الدنقلاوية . وقد رأيت مرة نوباويا من جبل أبو جنود وحدثته بالدنقلاوية . . واستطعت أن أجعله يفهم مني نسبياً . وحصلت منه على مجموعة من الالفاظ وجدت أنها تختلف اختلافاً يسيراً جداً عن تلك المستعملة في دنقلة – ولما سألت هذ النوباوى عن أصله أجابني بأنه من نفس الاصل (واستعمل لفظ « أرج » ومعناها أصل أو عرق) الذي ينتمي اليه الدناقلة .

(١) انظر بركهارت في (رحلات في بلاد النوبة) ص ١٣٣ ، ١٣٤ حيث يقول : « أما القبيلتان الجوابرة والغربية ، فإن الاخيرة فرع من قبيلة الزناتية الكبرى : استوطنت البلاد الواقعة من أسوان إلى وادي حلفا ، وكان من أثر ذلك أن بسطت نفوذها على عدد=

هناك - وهي تمتد من شلالات حنك إلى حلة التيتي ، وتتضمن ممالك أرجوا ، وجزيرة مقاصر والخناق .

وكان أهالي هذا الاقليم خليطاً ، معظمهم من الجوابرة والنوبة

= كبير كانوا قد استقروا على ضفتي النهر في زمن الغزو العام ، وكان من بينهم الكنوز وهي قبيلة من نجد والعراق . واستوطنت قبيلة الجعافرة الكبرى (وكثير من سكان دنقلة « العرضى » الآن ينتمون إلى هذه القبيلة - المؤلف) ضفاف النيل من أسنا إلى أسوان . واستقر قليل من أسر الاشراف في بطن الحجر وفرض فرع من قريش نفسه على المحس . وكانت النوبة موطن هؤلاء العرب منذ عدة قرون ، وظلوا في حروب مستمرة مع بعضهم بعضاً ؛ وفي أثنائها تمكن ملوك دنقلة من الظفر بنفوذ كبير عليهم حتى استطاعوا أخيراً أن يفرضوا عليهم الجزية .

« أما الجوابرة فقد تغلبوا على الغربية تقريباً ، فأرسل الغربية رسلاً إلى القسطنطينية ، في عهد السلطان سليم ، وطلبوا مساعدتهم على اعدائهم ، ونجحوا في اقناع السلطان سليم بامدادهم بقوة تتألف من بضع مئات من جنود البشناق بقيادة من يدعى حسن كوزى وبواسطة هؤلاء طرد الجوابرة وأهالي دنقلة من بلاد النوبة ، إلى دنقلة ، وإلى يومنا هذا نجد أغنى سكان دنقلة ينتمون إلى الجوابرة . ومع ذلك بقي بعض أسر الجوابرة في مواطنها يعيشون في سلام ، ولا تزال ذريتهم الذين يسكنون في معظمهم في الدر ووادي حلفا ، معروفين بأسماء أجدادهم » .

والمركز الرئيسي للجوابرة الآن في جزيرة بادين ، ويوجد عدد كبير في الزورات حيث يوجد مختار أفندي عوض ممثلهم الاعلى ، ويوجد عدد أيضاً في جزيرة سميت في المحس . ويطلق على الجوابرة في اللهجة النوبية اسم (جيركي) .

مع أثر من الكنوز [١] والمهاجرين المصريين. وهنالك أيضاً قليل من العرب الذين ينتمون إلى مجموعة البجة [٢] الساكنة في الصحراء إلى جهة الشرق .

غير أن الأسرة الحاكمة في أرجو كانت من الحاكماب [٣] وهي قبيلة جعلية ، وأطلق على الملك الذي أقام في أرجو وفي بنّه (ملك الجزر) . وكانت عاصمته في أرجو ، وكان إلى حد

---

(١) بنو كنز فرع من قبيلة ربيعة العربية ، هاجروا من نجد والعراق في أواسط القرن التاسع واستوطنوا مصر العليا ، وتصاهروا مع الاهالي وصاروا ذوي قوة وصولة في شئون الحرب . وفي أواخر القرن الثالث عشر غزا سلطان مصر سيف الدين قلاوون بلاد النوبة حتى بلغ دنقلة . ويروى أن جموعاً من بنى كنز قد صحبته في هذه الحملة . وفي القرن الرابع عشر هاجم بنو كنز مدينة أسوان ، وسيطروا عليها ، ولكن عرب الهوارة ردوهم مرة أخرى في بداية القرن الخامس عشر .

وللكنوز فروع أهمها النصر اللاب ، وأبو هور والامنيلاب الذين يقيمون في البلاد الواقعة بين أسوان والدر (أنظر لين بول في تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٢٩ ، ٣٠٨ ، وانظر بركهارت (رحلات في النوبة ض ٢٦) .

(٢) وهم البشاريون الذين ينتمون إلى أصل بجاوي بالرغم من أنهم يفتخرون بانتسابهم إلى الكواهلة (ابن بطوطة في وصفه لرحلته إلى ساحل البحر الاحمر) .

والبشاريون في دنقلة في الوقت الحاضر يتمثلون في قبيلة هاموك الذين يسكنون الصحراء إلى شرق أرجو .

(٣) انظر الملحق الاول .

كبير أقوى حاكم في الشطر الشمالي من الاقليم ، يعترف له سائر الأمراء بالسيادة والزعامة .

٢ – « دار البديرية »[١] وتمتد من تيتي إلى حدود دار الشايقية ، عند جبل الدجر[٢] ، وكان لها أمراء يحكمون في الخندق ودنقلة العجوز وجزيرة تنقسى وأبكور ودَفّر . وكانت دنقلة العجوز أكبر ممالكهم وكانت سائر الممالك بمثابة إمارات تابعة لها .

استوطن هذه البلاد البديرية والنوبة ، وسكنت مقاطعات كورتي وأمبيجول قبيلة الطريفية التي تمت بصلة قرابة وثيقة إلى البديرية (انظر الجدول في الملحق الأول) .

٣ – وتمتد « دار الشايقية » على طول ضفتي النهر من جبل الدجر إلى نهاية مسقط الشلال الرابع ، وتشمل ممالك أربعاً ، هي حنك ، وكجبى ، ومروى ، وعمرى .

---

(١) يقول بركهارت في : (رحلات في بلاد النوبة) ص ٦٣ « بين مدينة دنقلة ومروى يوجد واد للعرب يسمى بدير ، ورؤساؤه إلى وقت قريب كانوا خاضعين للشايقية » .

(٢) اسم هذا الجبل مختلف فيه بين الباحثين . وقد سماه بعضهم جبل الضيقة ، وهو جبل على الضفة الغربية (اليمنى) من النهر ، ويبدو أنه هو جبل ابن عوف .

والمقاطعة كلها يسكنها عرب الشايقية ، وقليل من النوبة يعيشون معهم عيشة خضوع واذعان . وأهل دار الشايقية يختلفون عن أهالي سائر الدور في أنهم عندما يتهددهم عدو مشترك ، يهبون صفاً واحداً لمحاربته ، وقد طرحوا جانباً كل ما بينهم من أحقاد وخصومات ، وبادروا جميعاً إلى الانضواء تحت قيادة موحدة . هذا بالرغم من أن دارهم مقسمة الى أربع ممالك منفصلة ، وأن ملوكها الاربعة طالما تنازعوا فيما بينهم ، ولكنهم حين يجد الجد كلمة واحدة . وهنا يكمن السر في قوتهم . وقد عجزت ممالك دنقلة الأخرى عن تأليف جبهة متحدة ضد أي عدو مشترك فكانوا ينقسمون دائماً على أنفسهم ، ولهذا فمنذ أن ظهروا الى حيز الوجود كانوا دائماً خاضعين لقوة أخرى أجنبية عنهم .

الفصل الثاني

ضعف نفوذ الفونج في دنقلة

في غضون القرن السابع عشر أصبح الشايقية قبيلة قوية ذات نفوذ وسلطان . والحق أنهم صاروا من القوة بحيث استطاعوا في خلال النصف الأخير من هذا القرن أن يشقوا عصا الطاعة على سلطنة سنار وأن يتحدوا العبدلاب والفونج جميعاً .

وحانت لحظة الثورة على بلاط سنار ، عندما ثارت المتاعب والخلافات الداخلية في سنار . ونستدل على ذلك بالفقرة الآتية التي اقتطفتها من مخطوط عربي كتبه لي المرحوم الشيخ ابراهيم الشريفي بعنوان (تاريخ السودان المختصر) : « وحكم (الملك بادي أبو دقن) ستة وثلاثين عاماً ثم خلفه ابن أخيه أونسه ود ناصر . وفي عهده ، في سنة ١٠٩٥ هـ (١٦٨٤ م) وقعت مجاعة شديدة ، حتى أكل الناس لحم الكلاب وتعرف هذه السنة

بسنة « أم لحم [١] » . وقد هلكت جموع كبيرة من الناس وأمست البقاع الخصبة كلها صحارى جرداء ، بسبب المجاعة وانتشار الجدري [٢] .

« وظل هذا الملك يحكم في سنار حتى أدركته الوفاة سنة ١١٠٠ هـ وكانت مدة حكمه اثنتي عشرة سنة .

« وخلفه ابنه الملك بادي الأحمر . وكان هذا أول ملك من ملوك الفونج تخرج عن طاعته القبائل التابعة لحكمه ، فثار عليه الشيخ الأمين أرادب ودعجيب وسار اليه على رأس ألف رجل من الفونج وغيرهم ونصبوا ملكاً آخر عليهم اسمه أوكل ونادوا بعزل بادي الأحمر » .

كان النير الذي وضعه « السلطان الأزرق » في رقاب هؤلاء القوم المحاربين المعتزين بأنفسهم أمراً ثقيلاً على نفوسهم ، وقد وجدوا الآن الفرصة سانحة للتخلص منه ، فقام بينهم بطل محرر يتمثل في شخص عثمان ود حمد العمرابي الذي استطاعوا على يده أن يحققوا ما كانوا يصبون اليه ، ويضعوا دفعة واحدة حداً لهذه التبعية التي جعلت مركزهم شاقاً مهيناً .

---

(١) هذه التسمية هي من قبيل تحسين المدلول بلفظ يدل على عكس ما يخشى منه ويتشاءم من ذكره . واللفظ هنا معناه السنة الكثيرة اللحم والخيرات !

(٢) انظر الملحق ٣ .

كان عثمان ابناً أمثل من أم مثلى . كانت أمه عديلة [١] فارسة شهيرة في تاريخ الشايقية ، قد فاقت في الفروسية وفنون القتال جميع نظرائها من الرجال . تركب في طليعة الجيش حين يتقدم الى ميدان النزال . وتخوض قلب المعركة حين يحتدم القتال .

وكان وجودها مع المحاربين ، وبسالتها في الحرب أكبر مشجع لهم على الاستماتة في القتال ، ولقد أحرزت لقبيلتها كثيراً من المعارك التي كان النضال فيها شديداً عنيفاً .

يزعم البعض أن عديلة قد سنت للشايقية سنة جديدة ، وهي مارواه الرحالون كايو وودنجتون وهانبري [٢] عن موقعة كورتي من أن الشايقية من عاداتهم أن يجعلوا امرأة تركب في طليعة الجيش ، لتحرضهم على القتال ، وتعطي لهم الاشارة ببداية المعركة ، ولكنني أظن أن هذه العادة ترجع إلى أقدم من هذا .

وكانت عديلة هي التي حرضت عثمان على ايواء أحد الهاربين من وجه الشيخ الأمين ود عجيب زعيم العبدلاب . وكان هذا اللاجيء الهارب قد فقد ثقة الشيخ الأمين وخشي بطشه وسطوته . وقد أوغر هـذا صدر الشيخ ، وكانت عديلة بذلك التحريض هي السبب في إشعال نار الحرب التي أدت إلى استقلال الشايقية .

---

(١) يكتبها المؤلف عازلة أو عزيلة .

(٢) في (رحلة إلى مروى) للرحالة كايو ، وفي الرحلات التي كتبها وادنجتون وهانبري .

فعندما بلغ ود عجيب أن هذا الهارب قد اتخذ من عثمان ملجأ ، أرسل إلى عثمان رسولاً يخيره بين أمرين : إما أن يقتل الهارب أو أن يسلمه اليه فوراً . وقد أجاب عثمان على رسالة الشيخ الأمين بجواب ينطوي على إهانة ، اذ رفض أن يقتل اللاجيء وأخبر ود عجيب بأنه إذا كان يريد هذا اللاجيء فليحضر بنفسه ليأخذه إن استطاع .

وأيقن عثمان بالعواقب التي لامفر من حدوثها والتي تترتب على هذا التحدي ، فرجع إلى جزيرة دلقة [1] وتهيأ للقتال .

ولم يتوان الشيخ ود عجيب في تجهيز جيشه ، فعسكر على شاطيء النيل أمام دلقة وأرسل إلى الشيخ عثمان بالتسليم في مدة لا تزيد على خمسة أيام .

كانت القوة التي تحت إمرة عثمان قليلة جداً ، فجعل يعرض خيله للشمس طوال اليوم، ويعلفها علفاً جافاً، ويصبغ جلودها كل يوم بلون مختلف من ألوان الأتربة والكلس ، ثم يرسلها لتشرب من النيل في وقت الغروب فتتراءى للعدو أسراباً مختلفة من الخيل . وبهذه الحيلة خدع ود عجيب ، وأوهمه أن لديه من القوة خمسة أضعاف ما كانت عليه في حقيقة الأمر . ففزع ود عجيب فزعاً شديداً ، حتى أنه في اليوم السادس ، الذي كان مقرراً أن يحمل

(١) دلقة جزيرة جنوبي بلدة مروى على مسافة تقرب من ستة وخمسين ميلاً على خط العرض ١٨،٥٣ .

ود عجيب فيه على جيش عثمان ، أرسل إلى عثمان لمفاوضته .
وخشي عثمان أن يغدر ود عجيب بجيشه ، فعبر اليه بمفرده ، من طرف الجزيرة ، بعيداً عن مرأى معسكر العبدلاب ، ومضى حتى وصل الى الشيخ ود عجيب وهو راكب جواده ، ولم يكن ود عجيب يتوقع هذا الصنيع من عثمان . وكان ود عجيب حينئذ جالساً على الأرض يلعب (المنقلة) مع أتباعه ، (وهي نوع من لعبة الضامه) .

فلما نزل عثمان عن ظهر جواده عثرت قدمه بركاب السرج فبادر ود عجيب إلى أحد أتباعه ، وأسر اليه قائلاً : « إن الله سلمه إلى أيدينا . فأسرع اليه واقتله » .

ولكن شايقياً من أصدقاء عثمان ، كان يجلس في مجلس ود عجيب ، وسمع ما قاله هذا ، فصرخ قائلاً باللهجة الشايقية : « وحياة الرب شرك أم حبيبة في رقيبك طب » ، ومعناها « انج بنفسك قبل أن يقع فخ الطير في رقيبك » . ولم يفهم العبدلاب ماقال الشايقي ، ولكن فهمه عثمان ، وسرعان ما قفز على صهوة جواده ومضى به مسرعاً إلى ضفة النهر ، وانطلق الى النهر فشق عبابه ، هو والجواد ، حتى بلغ دلقة .

ولم يكن بد من أن يعمل عثمان للقضاء على جيش العبدلاب في وقت سريع ، فدعا رجاله جميعاً ، فجمعوا دوابهم ومعيزهم وماشيتهم ، وكل ما عثروا عليه من القش والحطب .

فلما غربت الشمس ، عبر هو وجنوده وما معهم من الحيوان الى شاطىء النيل بعيداً عن مرأى معسكر ود عجيب .

وجمعوا حيوانهم ، وربطوا على ظهر منها كل حزمة من القش والحطب . وفي منتصف الليل ، عندما كان ود عجيب وجنوده نائمين ، سيقت هذه القطعان الكبيرة من الحيوان إلى مكان قريب من معسكر الأعداء . وأشعلت النيران في القش والحطب ، فانطلقت القطعان بجفلة في اتجاه معسكر العبدلاب حتى توسطت الجنود النائمين . فأحدثت بينهم ذعراً واضطراباً . وانطلق عثمان ورجاله خلف هذه الكتل المشتعلة وهم يتصايحون صيحات الحرب الرهيبة المفزعة .

وأفلحت هذه الخدعة ، ولاذت جيوش العبدلاب بالفرار متفرقين مشتتين ، تاركين زعيمهم الشيخ الأمين ود عجيب ، وقد أنف أن يلوذ بالفرار ، ففرش فروته [1] في انتظار الموت . ورآه عثمان على هذه الحال ، فوعده ، وهو شاهر سيفه ، أن يعفو عنه ، على أن يضمن له استقلال الشايقية .

وقطع ود عجيب له المواثيق بذلك ، وتأكد استقلال الشايقية منذ ذلك الحين .

---

(١) توضع الفروة عادة فرشا على ظهر الجواد .

هذه هي القصة كما يرويها الشايقيـة [١] ، ولكن ليس من اليسير أن نعرف مدى صحتها .

ومن المحتمل أن تكون هذه الأحداث قد وقعت حوالي سنة ١٦٩٠ أو قريباً من ذلك . لأن ود عجيب نفسه قتله الملك بادي حوالي ١٧٠٢ [٢] ولأن الرحـالة بونسيه [٣] الذي كان في كورتي في يناير ١٦٩٩ ، يخبرنا أن منطقة الشايقية لم تكن مأمونة للعبور فيها ، بسبب الثورة التي أعلنها الشايقية ضد ملك سنار . ومن الجائز أن يكونوا في ذلك الحين يتذوقون أولى ثمار استقلالهم .

(١) رواهـــا لي محمد علي بليلو عمدة السواراب ، وهو الحفيد الاكبر للشيخ عبود ، الزعيم المعروف عندهم الذي حارب في معركة كورتي .

(٢) هذا التاريخ هو ما ذكرته المخطوطة التي أشرنا اليها في مستهل هذا الفصل .

(٣) انظر رحلات بونسية ، الترجمة الانجليزية ص ١٥ .

الفصل الثالث

نهضة الشايقية

في مستهل القرن الثامن عشر ، نجد الشايقية ، قد نفضوا عن كواهلهم الولاء والتبعية لسلطنة سنار ، واستجمعوا قوتهم ، وتطلعوا إلى الشهرة ، وكان ذلك أحد العوامل الحاسمة في تاريخ السودان الشمالي ، في حين ظلت بقية ولاية دنقلة ، خاضعة لسلطنة الفونج .

في ذلك الوقت انصرف أمراء الفونج الى متاعب داخلية ، فكانت شغلهم الشاغل . ويتضح هذا من الفقرة التالية التي ننقلها عن المخطوطة الآنفة الذكر :

« ثم في ذلك الحين (أي في ١١٣٧ هـ — ١٧١٣ م) تولى بعده أي بعد بادي الأحمر) ابنه « أونسة » فاتبع هواه واستسلم للهو واللعب وأفرط في ذلك حتى انتهى خبره الى الفونج في الجنوب . . فعزموا على عزله . . وذهب عنه سلطانه وكان

ذلك في سنة ١١٣٠ هـ ، وذهبت معه سلطنة الفونج وانتزعت من أيديهم » .

« وفي سنة ١١٣٥ هـ تولى العرش الملك بادي أبو شلوخ وكان آخر ملوك الصولة والشوكة ، فلم تكد تنتهي مدة حكمه حتى سيطر مشايخ « الهمج » على أزمة الحكم فصاروا جريا وراء التقليد ، يعينون ملوك سنار ، ولكنهم من الوجهة العملية ، كانوا هم أصحاب السلطة والنفوذ فقد جمعوا كل سلطات الملك في أيديهم .

« في هذه الفترة (١١٧٥ هـ — ١٧٦٢ م) اتضعت قوة الفونج وأصبحت السيادة في أيدي الهمج . وقد كان للشيخ محمد أبو لكيلك النفوذ الأقوى على الملك وقد قتل من زعماء الفونج عدداً كبيراً » .

ولما انصرف أمراء سنار انصرافاً تاماً إلى متاعبهم ومشاغلهم الداخلية وهزم الشايقية شيخ العبدلاب ، انصرم ذلك الخيط الضعيف الواهي من النفوذ الذي كان الفونج قد فرضوه على دنقلة من قبل . ولم يكن هذا النفوذ قد استمر زمناً طويلاً قبل أن يفلح الشايقية في تنصيب أنفسهم سادة على ولاية دنقلة بأسرها .

ولعل قولنا « ذلك الخيط الضعيف الواهي من النفوذ » يحتاج إلى شيء من الايضاح ، فكثيراً ما نقرأ لمؤرخي عصر الفونج ، وما رواه الفونج أنفسهم للرحالة الأجانب الذين زاروا بلادهم من

أمثال بونسيه وبروس وكايو ، أخباراً تلقي في روع المرء أن الفونج كانوا ذوي السيادة المطلقة على السودان من شلالات حنك إلى حدود الحبشة منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر .

وفي رأيي أن هذا الزعم ، بالنسبة إلى السودان الشمالي ، وولاية دنقلة بنوع خاص ، هو زعم خاطىء كل الخطأ . فإن تلك الروايات التي أخبر بها الفونج على سبيل الفخر والمباهاة ، إنما تدلنا على عكس ما يفهم منها . فهي دليل آخر على ذلك الغرور الجامع الذي عرف به الافريقيون [1] (كذا ! !) فليس لدينا أي دليل على أن سيطرة الفونج على دنقلة كانت شيئاً خلاف مازعموا من أخبار هي غاية في الضعف .

أظن أن الباحثين قد وقفوا وقفة أطول مما ينبغي عند هذه الحقيقة المقررة وهي أن ولاية دنقلة قد أدت لسلطان سنار ، في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وشطر من القرن

---

(١) لا أدري على أي أساس جعل المؤلف صفة الغرور الجامع مختصة بقارة افريقية وسكانها . والمؤلف ها هنا بصدد إثبات أن دنقلة لم تكن تابعة للفونج تبعية قوية . وقد نسى أن أوائل الذين قالوا بهذه التبعية ، ليسوا هم الافريقيين ولكنهم الاوربيون من أمثال بريفيدنت القسيس اليسوعي ، وبونسيه الطبيب الفرنسي . وقد أشار كرافورد في كتابه (مملكة الفونج في سنار : ص ٢٩٤ — هامش إلى هذا ، وبين خطأ رأي المؤلف في هذا الصدد (المترجم) .

الثامن عشر ، نوعاً من الجزية (ونحن لانعرف ما إذا كانت سنوية أو كانت تؤدى بانتظام ، وما هي قيمتها) .

وهـــذا ، فيما يبدو لي ، ليس دليلاً كافياً لاثبات السيادة المطلقة ، ولكنه يدل ببساطة على أن أمراء دنقلة قـد أوجسوا خيفة من الأتراك العثمانيين ، وكان لهم كل الحق في ذلك ، فدفعوا لملوك سنار جزية بمحض ارادتهم ، حتى يجنوا ثمار المودة والتفاهم الذي كان بين الفونج والسلطان سليم . ذلك التفاهم الذي وطد دعائمه الامام السمرقندي بما قام به بين الطرفين من خدمـــات طيبة . فاذا كان هناك ادعاء بأن دنقلة جزء من امبراطورية الفونج ، فان الدناقلة انما أرادوا أن يأمنوا جانب العدوان التركي بما كانوا يقدمونه للفونج من مال هو بمثابة رشوة لهم .

ليس لدينا دليل على أن أمراء الفونج قد تدخلوا أي نوع من التدخل في تولية أمراء دنقلة على اختلافهم ، أو أن أية خدمة عسكرية قد طلب اليهم أن يؤدوها . ولا يشير أي مصدر من المصادر التاريخية إلى أنه كان للفونج أفراد أو عملاء يقيمون في أي قصر ملكي من قصور دنقلة على اختلافها ، أو أن ملوك الفونج قد تدخلوا في شئون دنقلة الداخلية أو عاقبوا أحداً من الدناقلة لأنه رفض أداء الجزية .

وهذا ، فيما أظن ، دليل كاف على أن دنقلة لم تكن يوماً

جزءاً من امبراطورية الفونج . أضف إلى ذلك أن أمراء دنقلة حين كان الشايقية يهاجمون ، لم يطلبوا من الفونج معونتهم .

لم يعزل الشايقية أمراءهم الوطنيين ، بل عينوا عمالاً في كل بلاط ، كانت مهمتهم أن يجبوا من كل أمير نصف ايراده (١) ، وأخذت جموع من فرسان الشايقية ، يطوفون البلاد من كورتي إلى حنك بقصد الاغارة والسلب ، فنهبوا وخربوا وأثاروا الرعب والفزع في نفوس الأهالي . وكان من جراء ذلك التخريب الذي أحدثته هذه الجموع أن هاجرت جماعات هائلة من السكان إلى كردفان ودارفور وبربر .

وقد وجد براون الذي زار دارفور في الفترة التي بين ١٧٩٢ ، ١٧٩٨ ، جالية كبيرة من أهالي دنقلة في « حلة حسن » بالقرب من القبة ، وفي القبة أيضاً . يقول براون : « معظم تجار القبة يفدون من نهر النيل ، والظاهر أنهم هم أول من اكتشفوا

---

(١) يقول بركهارت في (رحلات في النوبة ص ٧١): وكان عرب الشايقية ، منذ أن كان لهم نصيب من الايراد ، يأخذون عن الأرض التي ترويها السواقي ، أربعة (موريات) من الذرة عن كل ساقية ، ورأسين أو ثلاثة من الأغنام ، وثوباً من الكتان قيمته دولاران . وكان الملوك الوطنيون يأخذون كذلك مثل هذا المقدار .

ملاحظة : الموريات التي وردت في نص بركهارت جمع موري وهو من المكاييل القديمة يساوي حوالي ثلاث كيلات (المترجم) .

الطريق المباشرة التي تصل بين مصر ودارفور . فمنذ سنوات عديدة ، كانت بلادهم التي نزحوا منها ، في دنقلة والمحس وحدود النيل كلها إلى سنار ، وهي بلاد - فيما يروى - أفضل من دارفور في جميع الميزات الطبيعية - كانت مسرحاً للتدمير وسفك الدماء ، فلم يكن فيها حكومة مستقرة ، وكانت الانقسامات الداخلية - على الدوام - تعمل على تمزيقها ، وغارات الشايقية وسائر القبائل القاطنة بين النهر والبحر الأحمر تلقي الرعب في نفوس الناس » .

وهناك جالية كبيرة من قبيلة الطريفية نزحت من كورتي وأمبيجول وهي الآن تقطن في القبة . كما أن هنالك جماعة صغيرة في قرى (مديرية الخرطوم) . وفي كردفان كذلك كثير من البديرية والدناقلة وكان عدوان الشايقية قد أجلاهم عن دنقلة .

ويروي كايو [1] ان حملة اسماعيل باشا ، حين بلغت مديرية بربر ، وجدت أربعمائة أسرة كانت قد لاذت بالفرار من دنقلة بسبب تعدي الشايقية عليهم .

والظاهر أن الملك الوحيد من ملوك دنقلة الذي قاوم الشايقية هو ملك أرجو ، فقد عبأ جيشاً كثير العدد من الجنود المغاربة ، وسار به إلى حدود دار الشايقية .

ونشبت معركة عنيفة عند قاعدة جبل دجر ، وانهزمت

---

(١) رحلة الى مروى : المجلد الثاني .

جيوش ملك أرجو وقتل منها خلق كثير . وعلى أثر ذلك اشتد نفوذ الشايقية في دنقلة . وفي أثناء النصف الأخير من القرن الثامن عشر كانت دولة الفونج تنهار انهياراً حثيثاً .

وأفلت العبدلاب من ربقة الفونج فلم يجدوا أمامهم سوى الشايقية يثيرون في نفوسهم الذعر والفزع ، إذ قامت عصائب الشايقية من الفرسان ، بتخريب البلاد الواقعة على الضفة الغربية من نهر النيل حتى واجهوا حلفاية . بل هاجموا حلفاية ، ودحروا العبدلاب [1] .

ويحكي كايو [2] أن أهالي حلفاية ، قبل وقوع غارات الشايقية ، كان عددهم تسعة آلاف ، وبعد وقوعها قل هـــذا العدد حتى كان في سنة ١٨٢٢ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف .

ويقول بركهارت [3] : « قبل أن يصل المماليك إلى دنقلة (سنة ١٨١١) ، كان الملك نمر (ملك شندي) في حروب متواصلة مع عرب الشايقية الذين كانوا قد قتلوا كثيراً من أقربائه في المعارك ، كما أنهم أغاروا على بلاده عـــدة مرات ، جموع

---

(١) وتتفق الروايات التي يذكرهـــا العبدلاب والشايقيـــة في هذه النقطة .

(٢) رحلة الى مروى . المجلد الثاني ص ١٩٤ .

(٣) رحلات في النوبة ص ٢٤٨ .

كبيرة من الفرسان ، وتركوا كعادتهم كل الضفة الغربية للنهر خراباً بلقعا » .

وبينما كان الشايقية منصرفين إلى تلك الحروب والحملات ، كان العبيد والأسرى من النوبيين يتعهدون أراضي الشايقية بالري والزراعة .

ومن ثم كانت معظم المصطلحات اللغوية التي تتعلق بالساقية والزراعة عند الشايقية ، ولا تزال إلى اليوم ، مستمدة ، بوجه عام ، من اللغة النوبية .

وفي خاتمة القرن الثامن عشر يصبح الشايقية أقوى قبيلة في السودان الشمالي ، تثير الرعب في جميع البلاد الممتدة من حلفاية إلى حدود الحبس .

يقول كايو : « بعد زوال مملكة سنار ، أصبح الشايقية جبابرة في نظر جيرانهم . وقد عانى أهالي دنقلة وبربر وحلفاية ما عانوه على أيدي هؤلاء القوم الجسورين - قوم نشأوا محاربين نساء ورجالاً » .

الفصل الرابع

المماليك

ظل الشايقية أصحاب السيادة المطلقة على دنقلة حتى قدم المماليك من مصر فأحدثوا الصدمة الأولى في قوة الشايقية .

كان محمد علي قد عين والياً على مصر في ربيع ١٨٠٥ م ، وأخذ منذ البداية في العمل على القضاء على المماليك أصولاً وفروعاً ، ومنذ هذا العام حتى عام ١٨١١ ، عندما وقعت مذبحة القلعة الكبرى ، أخذت تتكرر مذابح المماليك في كل عام .

وهرب عدد كبير منهم من تلك المذابح إلى بلاد النوبة . فلحق بهم ابراهيم بن محمد علي ، وهزمهم في وادي قوزنمنه [١] وهو في منتصف الطريق بين أسوان والدر .

وبعد هذه المعركة ، انقسمت فلول المماليك إلى طائفتين احداهما تحت امرة إبراهيم بك وهو الذي قد هرب من مذبحة القلعة في

(١) بركهارت (رحلات في بلاد النوبة ص ١٢) .

القاهرة ، بأن قفز بحصانه من فوق شرفات القلعة إلى الخندق في أسفلها ، والأخرى بقيادة عبد الرحمن بك ، وهربوا إلى الجنوب ، حتى بلغوا دنقلة . وسارت إحدى الطائفتين على امتداد ضفة النهر الغربية يخربون البلاد في طريقهم . أما الطائفة الأخرى فقد آثرت تقصير المسافة فشقت طريق الصحراء .

والتقت الطائفتان مرة أخرى على ضفاف النيل بالقرب من شلالات حنك في سنة ١٨١١ ، واحتشدوا حشداً واحداً يبلغ عدده كما قدره بركهارت ، حوالي ٣٠٠ من المماليك البيض ، وكثيراً من العبيد المسلحين ، ويقدر مجموع هذه القوة المحاربة بما يقرب من ستمائة رجل . أما وادنجتون فقد قرر عددهم بضعفي هذا العدد على وجه التقريب . وأراني أميل إلى قبول تقدير بركهارت .

ولما بلغوا حنك وجدوا محمدا كاشف المحس ، في قتال مع الملك طنبل ملك أرجو ، الذي كان قد أحس بضغط جنود الكاشف عليه ، فأغلق على نفسه أبواب قصره الحصين القائم على جزيرة تنبس[١] .

حاول محمد الكاشف أن يغري المماليك لكي ينحازوا إلى جانبه ضد الملك طنبل ، ولم يلبث أن اختلف المماليك فيما بينهم

(١) ودانجتون وهانبري ، في الرحلات ص ٢٢٥ .

في الجانب الذي ينبغي أن يساندوه . ومع ذلك فقد قر رأيهم أخيراً على أن يقفوا إلى جانب ملك أرجو ، فساروا اليه .

وأحب محمد الكاشف أن يقتص من المماليك ، فلجأ إلى محمد علي باشا يستنجد به .

كان يقيم في أرجو ، في ذلك الوقت ، محمود العدلانابي ، أحد نواب الشايقية ، فأخبره المماليك أنهم ليس في نيتهم أن يبقوا في دنقلة ، وانما مروا بها في طريقهم إلى سنار التي عقدوا النية على السكنى بها . وقد أحسن محمود العدلانابي وفادتهم ، وأهدى اليهم كثيراً من الخيول والجمال والعبيد والمؤن .

يقول بركهارت [١] : « بالرغم من أن هؤلاء الهاربين الغادرين لم يكونوا قد مكثوا في أرجو شهراً ، فقد قتلوا صاحب الفضل عليهم ، بحجة واهية ، وقتلوا معه عدداً كبيراً من أتباعه ، ثم بسطوا سلطانهم على البلاد وخربوا ممتلكات الشايقية ، واستولوا على الايراد . وفي أثناء ذلك انضم أحد ملوك أسرة الزبير ، وهي الأسرة الحاكمة في أرجو ، إلى المماليك ضد الشايقية ، أما عم هذا الملك ، واسمه طنبل بن الزبير فقد سافر إلى مصر يطلب معونة من الرجال والسلاح لمحاربة الغزاة الطارئين الذين انضم اليهم فيلق آخر من الشايقية ، يربو عدده على ثمانين فارساً وهم الأعداء

(١) رحلات في بلاد النوبة ص ٦٦ .

الألداء لقبيلة محمود العدلاناني . ومنذ ذلك الحين اشتبك المماليك في حرب مستمرة مع الشايقية وقتل من الطرفين كثير من الأفراد » .

واستقر المماليك في حلة مراغة ، وهي على بعد ثلاثة أميال شمالي دنقلة الحالية (العرضى) ، واتخذوها عاصمتهم ، وبنوا لأنفسهم مباني منسقة جميلة .

والظاهر أنهم لم يكونوا جميعاً سعداء في موطنهم الجديد إذ يخبرنا بوركهارت أن (كثيراً من المماليك ماتوا في الصيف الماضي من تأثير حمى التيفوس ، التي تتفشى في دنقلة بانتظام في موسم الصيف وتقضي على عدد من سكانها . وقد عجز المماليك عن تحمل الحرارة وهم في ملابسهم الصوف الساخنة ، التي مازالوا يلبسونها ، ولذلك أقاموا عدداً من الأطواف العائمة على الماء ، يقضون فيها زمن الصيف تحت ظلل من الحصر ، يتولى العبيد ترطيبها بالماء على الدوام) . أضف إلى ذلك أن الشايقية كانوا يلقون دائماً في نفوسهم الرعب والقلق بخيالتهم الجريئة المقتحمة .

ومع ذلك فالظاهر أنهم أفادوا البلاد التي حكموها بعض الشيء إذ علموا أهاليها كثيراً من المعارف التي حسنت أساليب الزراعة بينهم ، ويقال أن زراعة القمح تعزى اليهم .

ويزعم وادنجتون أن الجزء من البلاد الذي حكمه المماليك ، كان يروى فيما يبدو بطريقة أحسن من تلك التي كانت متبعة في سائر المديرية . كما أن سكانه كانوا أكثر تقدماً ومدنية . ومع ذلك كانوا جباة قساة يأخذون من الأهالي ثلث محصولهم ضريبة لهم .

وقد امتد سلطانهم من حدود المحس إلى حلة الخندق في حين كانت بقية المديرية في أيدي الشايقية .

كانت غارات الشايقية الذين مرنوا على النهب والسلب تساور منطقة المماليك فأحفظهم ذلك وعقدوا النية على مهاجمتهم ، فسيروا حملة في يناير ١٨١٢ اتجهت من مراغة إلى دار الشايقية . وبينما هذه الحملة تشق طريقها كانت فرقة من الشايقية قد عبروا الصحراء من مروى بطريق « محيلة » ، وهاجموا أرجو واستولوا عليها وأوقعوا خسائر بالغة في ما خلفه المماليك من أمتعة وممتلكات في مراغة .

وعندما بلغ جيش المماليك خبر اغارة الشايقية على منطقتهم ، انقسموا إلى فرقتين ، فرقة كانت تحت إمرة ابراهيم بك ، رجعت إلى مراغه ، لتقاوم المغيرين من الشايقية في حين تقدمت الفرقة الأخرى بقيادة عبد الرحمن بك إلى دار الشايقية بحذاء الضفة اليسرى من نهر النيل . ونشبت معركة في حلة « حتاني » بالقرب

من جبل « تماكه » ، وهي لم تكن فيما يقال معركة فاصلة [1] .
وقد عاد المماليك بعدها إلى مراغة .

وسواء أكانت المعركة غير فاصلة أو فاصلة ، فان تأثيرها في الشايقية ، كان مثمراً ، إذ لم تلبث اغاراتهم على منطقة المماليك أن توقفت تماماً ، وبذلك استطاع المماليك أن ينصرفوا في حرية إلى بذل نشاطهم في تحسين البلاد التي استولوا عليها.

---

(١) اخبر الملك طنبل ملك أرجو الرحالة وادنجتون أن المماليك هزموا الشايقية في كريبج وقتلوا منهم ١٥٠ شخصاً . ثم ذكر طنبل أنه كان في الحملة وان النصر كان باهراً إلى أقصى حد (راجع الرحلات ص ٢٢٨) .

وهذا غير محتمل إلى حد كبير ، وأخشى أن يكون الملك قد أخذته نشوة التمجيد فألسته الحقيقة .

الفصل الخامس

الغزو التركي

في سنة ١٨٢٠ تحولت الأحداث الجارية إلى وجهة مختلفة . فمما يروى أن محمد علي كان يطمح إلى الاستيلاء على جميع شواطىء النيل وجزره ، وإلى السيطرة على كل الذين يشربون من ماء النيل من بلاد الحبشة إلى البحر الأبيض المتوسط .

ففي ربيع ١٨٢٠ عقد النية على السعي في تحقيق مطامحه هذه ، ولذلك جهز حملة تتألف من عشرة آلاف مقاتل مزودين باثنتي عشرة قطعة من المدافع لاخضاع القبائل التي تسكن وادي النيل . وجعل قيادة جيشه لابنه الأصغر اسماعيل باشا الذي بلغ من العمر في ذلك الوقت اثنتين وعشرين سنة .

غادرت الحملة القاهرة في مستهل الصيف ، وكان مماليك مراغة آنئذ قد نقص عددهم بتأثير الحروب والحمى حتى بلغ – على حد تقدير كايو – ثمانين رجلا . فما أن سمعوا بحملة القاهرة ، حتى

جمعوا في شهر يونيو بقاياهم ، ومعهم عبيدهم المسلحون ، ونفضوا عن أقدامهم غبار مراغة ، وخرجوا يقصدون إلى شندي فاخترقوا من بلدة كورتي صحراء بيوضة .

ولما علم الشايقية بخبر رحيلهم ، دبروا لهم كميناً بالقرب من كورتي ليقطع عليهم الطريق مباغتة ، ولكن المماليك كانوا أحرص منهم ، فتنبهوا إلى صنيع الشايقية ، وفاجؤوهم في مكامنهم ، وأسروا منهم عدداً كبيراً ، وقتلوا هؤلاء الأسرى على الفور ثم مضوا في طريقهم إلى شندي[1] .

ولم يكد المماليك يغادرون منطقتهم ، حتى بادر الشايقية إلى مباغتة البلاد التي كان المماليك قد استولوا عليها ، وجعلوا يعملون فيها نهباً واحراقاً وتخريباً ، وأسروا عدداً من السكان ، وحملوهم إلى دار الشايقية لكي يزرعوا الأراضي ، ويساعدوهم على قتال الأتراك .

ولم يكفوا عن ذلك ويرجعوا إلى دارهم إلا عندما وصل جيش اسماعيل باشا .

وصل المماليك إلى شندي ، وعسكروا خارج المدينة . وظلوا إلى أن أمرهم ملك شندي ، وكان قد سمع بانتصارات اسماعيل باشا على الشايقية ، أن يرحلوا عن بلاده[2] . فحينئذ تشتت

(١) وادنجتون وهانبري ص ٢٣٠ .

(٢) وانجتون وهانبري ص ٢٣١ .

شملهم ، ففريق اتجه إلى دار فور ، وفريق إلى البحر الأحمر ، وقليل منهم آثر العودة إلى مصر من طريق الصحراء النوبية ، حيث يقال إن قبائل البشاريين قتلوهم في الطريق .

ومنذ ذلك الحين انزوى المماليك عن التاريخ ، ولم نسمع عنهم شيئاً .

أما حملة اسماعيل باشا ، فقد كانت مجهزة بعشرة آلاف رجل ، معظمهم من الأتراك والألبان والمغاربة بقيادة عابدين كاشف وحسن دار وسلحدار وعمر كاشف ، ومعهم ١٥٠٠ من البدو بخيلهم وجمالهم يقودهم خوجة أحمد ، وقد لحق به عند أسوان حشد كبير من عرب العبابدة [١] .

مضى اسماعيل وجيشه في طريقهم دون أن يعترض سبيلهم أحد حتى بلغوا دنقلة الجديدة (العرضى) .

كان أقوى ملوك الشايقية في ذلك الحين ، الملك شاوس (ويحرف اسمه أحياناً فيسمى شاويش) ملك العدلاناب ، وكانت عاصمتهم في مروى ، والملك صبير ملك الحنكاب وكانت عاصمتهم حنك .

وكان هناك ملكان آخران أقل شأنا ، هما الملك مدني ملك

---

(١) نفس المرجع ص ٩٣ .

كجبي ، والملك حمد ملك العمراب . فلما اقترب الاتراك من بلادهم ، تكتل الشايقية جميعاً ، تحت امرة شاؤس وصبير وكان الأول قائدهم .

يقول وادنجتون : « عندما وصل الباشا التركي إلى دنقلة ، أصدر أوامره إلى الشايقية بـــأن يعلنوا الخضوع لسلطان محمد علي ، فأبدوا اليه الرغبة في أن ينصرفوا إلى زراعتهم وأن يدفعوا له الجزية . فطلب الباشا أن يثبتوا له حسن نيتهم ، بأن يرسلوا اليه أسلحتهم وخيولهم ، فأعادوا عليه قولتهم الأولى . فأجابهم الباشا بأن أباه قد أمره أن ينشىء منهم شعباً من الفلاحين لا شعبـــاً من المحاربين ، وطلب اليهم مرة أخرى أن يسلموه الأسلحة والخيل .

حينئذ أجابوه في تحد قائلين : « إما أن تذهب لحال سبيلك أو تأتي فتحاربنا » فسير الباشا جنوده إلى حدود بلادهم .

كان أول دماء سفكت في حلة ملقّى حيث قتل الشايقية خمسة من العساكر الألبانيين .

وبدأت المعركة بمناوشة وقعت قريباً من دنقلة العجوز حيث باغت فريق من الشايقية الخيالة اسماعيل باشا ، وبعض ضباطه ، وقليل من الجنود ، الذين كانوا قد انفصلوا عن الجيش الرئيسي ، ومع ذلك استطاعوا أن يصدوا الشايقية دون عناء .

واصل اسماعيل التقدم بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل دون أن يلقى مقاومة ما حتى بلغ قريباً من كورتي . وهنا يروي عابدين كاشف ثاني قواد الجيش التركي ، أن الشايقية قد مزقوا طليعة استكشافية تتألف من مائة من فرسان البدو ، فقتلوا منهم سبعين ، وجرحوا عشرين . وفي هذه البقعة تجمع الجيش الرئيسي للشايقية لصد الغزاة .

وبالقرب من المكان الذي تقوم فيه حلة كورتي الحالية ، وقعت معركة حامية الوطيس ، انتهت بهزيمة الشايقية .

وكان في صفوف الشايقية فتاة ، تدعى مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ السواراب ، تركب جملاً مزداناً بالحلي والأدوات الفاخرة ، فأعطت اشارة البدء بالقتال بأن أطلقت الزغاريد ، فاندفع فرسان الشايقية يخوضون المعركة في قوة ومهارة ، وكان هجومهم عنيفاً جداً حتى أن البدو والمغاربة الذين تألفت منهم طلائع الجيش التركي ، قد ارتدوا وهم مضطربو النظام الى الجيش الرئيسي .

ووافى عابدين كاشف للانقاذ ومعه خيالته ، وشد على الشايقية ثلاث مرات مريعة متلاحقة ، حتى كبح جماحهم ، وحتى استطاع البدو والمغاربة أن يلموا شتاتهم ويصمدوا للمعركة من جديد . وأصبحت نتيجة المعركة ، في لحظة من اللحظات ، موضع الشك

بالنسبة للطرفين المتحاربين . ولو أتيح للشايقية أن يتخذوا الأسلحة النارية ، ويعرفوا كيف يستخدمونهـــا ، لدرات الدائرة على الأتراك . ولكن الشايقية ، كانوا في الواقع مسلحين بأشد أنواع السلاح بدائية ، فلدى كل منهم رمحان ، وسيف عريض النصل ، ودرع من جلود وحيد القرن ، وقليل من زعمائهم لبسوا أردية من الزرد ، وملكوا بعض الطبنجات .

عند تلك اللحظة الفاصلة ، أشار اسماعيل باشا الى الجيش الرئيسي فأطلقوا عدة طلقات نارية سريعة ، وكان لها آثار مميتة ، في حشود الأعداء المتلاصقة .

ولم تعد النتيجة موضع شك ، فقد فر فرسان الشايقية في هلع ورعب ، أمـا المشاة منهم ، فقد انبطحوا على وجوههم ، ووضعوا دروعهم على رؤوسهم يتقون بها طلقات العدو ، وابتهلوا اليه أن يرحمهم .

وقد انجلت المعركة عن ستمائة قتيل وجريح من الشايقية ، تسعون في المائة منهـم كانوا من المحاربين المشاة .

وكان المشاة في جيش الشايقية يتألفون في معظمهم من النوبيين الذين أسرهم الشايقية في أثناء غاراتهم المتكررة على دنقلة . وقد وقع عدد كبير من هؤلاء المشاة في يد اسماعيل فأرسلهم إلى قرام .

لقد حارب الشايقية بشجاعة وجسارة عظيمتين ، وحازوا اعجاب

أعدائهم . وقد وصف وادنجتون طريقتهم في القتال فقال : « إن لديهم في الهجوم جراءة نادرة لا نظير لها ، يركبون إلى الأعداء ويواجهونهم مواجهة قريبة ، وقلوبهم تهفو إلى اللقاء ، في خفة وابتهاج كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو عيد ، ويعلو وجوههم السرور كأنهم يلقون أصدقاء اشتد بهم الشوق الى رؤيتهم بعد طول غياب . فـــاذا واجهوا العدو بادأوه بقولهم : « السلام عليكم » ـ سلام المنية التي توافي تلك الرماح والتي تعقب هذه التحية مباشرة . وتتوالى الطعنات يعطونها ويأخذونها ، وعلى ألسنتهم تتردد ألفاظ الحب والمودة . هذا الازدراء للحياة ، وهذه السخرية بأشد الأشياء اخافة وارهاباً ، هـو صفة لازمة لهؤلاء القوم ـ إنه الشعب الوحيد الذي يتخذ من الأسلحة لُعبًا يتلهى بها ، ومن الحرب رياضة محببة إلى نفسه . لايتطلبون من أعدائهم شيئاً سوى التسلية ، ولا يخافون من الموت شيئاً سوى أنـــه راحة لأبدانهم .

« وفي هذه السبيل أتيح لهم من البواعث ما أكد عندهم ما توارثوه من شجاعة جرت مجرى الفطرة في نفوسهم. فقد عاشوا رفاقاً ملازمين لخيلهم ، ورماحهم في أيديهم ، ثم تغيرت حالهم ، فأجبروا على أن يتخلوا عن خيلهم للغرباء ، وأن يستبدلوا برماحهم زحافات لتسوية الأرض المزروعة ، ومقاضب لتشذيب الشجر .

وأرغموا على أن يسوقوا الثور حول الساقية بعد أن كانوا يطاردون العدو عبر الصحراء . وكان لديهم كثير من النوبيين الذين استوطنوا بلادهم ، واضطرهم الشايقية على أن يقوموا بجميع الأعمال الخاصة بري الأرض وزراعتها ، وكانوا ينظرون إلى النوبيين على أنهم دونهم كثيراً في المرتبة . أما الآن فقد دعوا إلى أن يؤدوا بأنفسهم هذه الأعمال التي تعودوا أن ينظروا اليها على أنها أليق بالعبيد والخدم . وصاروا لا يتوقعون من أحد معاملة أحسن مما كانوا قد تعودوا عليه من قبل . لقد قُضي عليهم أن ينحدروا إلى العبودية دفعة واحدة ، بعد أن كانوا ، ليسوا أحراراً فحسب ، بل طغاة جبارين كذلك » .

ويقول كايو إن معظم المشاة في جيش الشايقـــية كانوا سكارى [1] ، وأن كثيراً منهم كانوا يلقون بأنفسهم ، في تهور واندفـاع ، على بنادق الجنود الأتراك ، وقـد حملوا في أيديهم أوعـــية الشراب المسكر ، وبدت على وجوههم علائم السرور كأنهم يشتركون في احتفال أو عيد .

وذكر وادنجتون أن خسائر الأتراك قد أسفرت عن جرح ضابط واحد وستة عشر جندياً . وهذا قد يصدق على الأتراك

---

(١) هل هذا صحيح ؟! فكيف يتفق هذا الكلام مع أقوال الرحالة الآخرين الذين لم يشيروا إلى هذه المسألة (المترجم) .

أنفسهم ، أما عن حلفائهم من البدو والمغاربة فلا بد أن الخسائر بينهم كانت فادحة ، اذ أنهم هم الذين تحملوا معمعان القتال في هجوم الشايقية . وقد قدر كايو عدد القتلى ثلاثين والجرحى ثمانين وربما كان هذا أقرب إلى الصحة .

بعد انتهاء المعركة ، استسلمت قرى البلاد المحيطة ، للخراب والحرائق ، وارتكب الغزاة صنوفاً مروعة من الوحشية والفظاعة ضد الأعداء الذين كانوا قد قاوموهم في شهامة وبسالة .

وأعلن اسماعيل باشا عن مكافأة قدرها خمسون جنيهاً لكل من يحضر له أذنين لأي شايقي قـُتل في الحرب ، حتى يرسل ما يجمعه من الآذان المصلـّمة إلى والده محمد علي شاهداً على نجاحه الباهر .

وكان من أثر ذلك أن أصبح لايقف الأمر عند تصليم آذان الذين قتلوا وجرحوا في ساحة القتال ، بل تعدى إلى هؤلاء الابرياء الذين لم يشتركوا في المعركة ، ولم يلتمسوا ذلك في الرجال وحدهم بل في النساء كذلك . والذين قاوموا منهم ، كانوا إذا لم يقتلوا فوراً ، تشوه أجسامهم بصورة مفزعة ، أما القتلى والجرحى فقد تركوا راقدين حيث كانوا ، تنهشهم سباع الطير وتتخذهم طعاماً لها .

وفيما يلي نورد فقرة من كلام كايو ؛ وهي تلقي ضوءاً قاتماً على ماحدث بعد انتصار الاتراك :

هرب بعض الشايقية إلى أوطانهم ، ظانين أن أعداءهم سيبقون على الرجال العزل - ولكن أملهم كان سراباً ، فقد انتشرت الجنود الثائرة الهائمة كالسيل الجارف ، تجلب معها ، حيث حلت ، الحرائق والسرقات والمذابح . وحاول الباشا أن يضع حداً لتعدي هؤلاء المجانين ولكن في غير طائل ، ولا غرو أن كان الباشا مسؤولاً عن ذلك ، فهو الذي دفعهم أول الأمر إلى التمادي في ذلك ، حين أعلن لهم عن مكافأته لكل من يأتي بآذان الشايقية مصلمة . فإذا كان بعض الأتراك قد دفعتهم مشاعر انسانية ، فوهبوا الحياة لأحد من هؤلاء التاعسين العاثري الحظ ، فلم تبلغ بهم الأريحية قط إلى الحد الذي جعلهم يدّعون الأذنين ملكاً لصاحبها . فقد سمعت رجلاً يونانياً ، كان طبيب الباشا ، يفتخر بأنه أهدى إلى أحد الجنود أذني فتاة كان قد وجدها مختبئة في حقل من الذرة ، ويعلن أنه أبقى على حياتها لأنه شعر نحوها بعاطفة ، وأنه ما كان يشعر بمثل هذه العاطفة إزاء النساء الأخر اللائي يكبرنها سنـــاً ، ولذلك كان يذبحهن دون تردد » .

ويؤيد جيوفاني فيناتي[1] الذي صحب الحملة ، مارواه كايو

(١) جندي ايطالي التحق بالجيش التركي وكان بين المستشارين الذين استعان بهم الباشا التركي في تنظيم جيشه . وكان في حاشية ابراهيم باشا حين زار سنار وفازوغلي ١٨٢١ - ١٨٢٢ ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ، واعتنق الاسلام وسمى نفسه الحاج محمد (المترجم) .

من ملاحظاته ، تأييداً كاملاً .

إن الغيظ الذي ملأ نفوس الجنود الأتراك ، لما وجدوه من أعدائهم من المقاومة في شجاعة وبسالة ، ولتعطشهم إلى التخريب ، وطمعهم في المكافأة ، قد ساقهم إلى الغلو المفزع في التعدي وانتهاك الحرمات .

لذلك لاغرابة في أن لا يقنعوا بانتصار واحد ، وان يتمادوا ، وهم يحسون بروح معنوية عالية ، في النيل من خصومهم بكل الوسائل الممكنة . وكانت كل الدلائل تنطق في وضوح وجلاء بهذه الحقيقة . يقول كايو : « فإن نصف الاهالي الذين التقينا بهم ، وكثير منهم من النساء ، كانوا محرومين إما من إحدى الأذنين أو من كلتيها ، وكان آخرون منهم قد قطعت أطرافهم . أضف إلى ذلك أننا التقينا في طريقنا بعظام وجثث وزرائب كانت طعمة للنيران » . فالواقع أن الاضطهاد الذي حدث ، كان يقصد فيما يبدو إلى الابادة والافناء . فالمنطقة كلها قد خربت ، وبذلك استحالت – في وقتها على الأقل – إلى اذعان مكتئب عابس .

فبعد موقعة كورتي خضع واحد أو اثنان من صغار المشايخ الذين حكموا على الضفة اليسرى من النهر ، أما سائر الشايقية وجيوشهم فقد عبروا النهر بزعامة الملك شاؤس واجتمعوا عند

جبل دجر حيث قرروا القيام بمحاولة عنيفة في سبيل الحرية . قام الجيش التركي ، مصحوباً بأسطول يتألف من حوالي ١٥٠ سفينة ، فعبر إلى الضفة اليمنى من كورتي وتقدم تجاه جبل دجر . وكان ذلك في الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٨٢٠ .

واصطفت جنود شاؤس على منحدرات التل ، تحميهم قصور شاؤس وتحصيناته ، التي وصفها شاهد عيان بأنها كانت تلقي ظلالاً مظلمة على جانب التل .

كان الموقع الذي اختاره شاؤس مناسباً إلى أقصى حد ، ولو لم يكن هنالك فارق بين الجيشين في نوع الأسلحة المستخدمة ، لكان من الجائز أن يضمن هذا الموقع لجنود شاؤس نصراً محققاً .

ولكن الجموع من سكان القرى الذين ساقهم شاؤس إلى الميدان أو أغراهم بالاشتراك في الحرب ، لم يكونوا يتملكون إلا الاسلحة والرماح والدروع والسيوف ذوات الحدين . وكانوا في مقدمة الجيش قد تصدوا لرصاص الأتراك يتلقونه ويستنزفونه ، دون أن يقدموا على أية مقاومة ايجابية في لحظة الهجوم .

أقام الباشا جيشه في مواجهة الأعداء ، ووضع القسم الأكبر من خيالته قبالة الأرض المكشوفة بين الجبل والنهر ، ودفع بمدفعيته قليلاً إلى الامام .

واندفع الاهالي المحاربون الى الامام وقد رفعوا أصواتهم

بصيحات عالية ، ولوحوا برماحهم ، وألقى المشاة بأنفسهم على المدفع ، ومـا كان في أيديهم سوى الاسلحة التي أشرنا اليها ، فنُسفوا نسفاً .

يقول انجليش ، أحد الضباط الامريكيين ، وكان قد حارب في المدفعية التركية : « كانت الشجاعة المستميتة التي اتصف بها هؤلاء القرويون التعساء ، تبعث على الدهش . فقد تقدموا أكثر من مرة تجاه فوهات المدافع ، وجرحوا بعض رجال المدفعية وهم يقومون بحشوها بالرصاص . ولكنهم بعد أن أحسوا بآثار قليل من الطلقات النارية ، التي مزقت الخيل والناس أشلاء ، هربوا مذعورين ، تاركين عساكر المشاة وقد داسوهم ، وأخذ فرساننا يقذفونهم بالسيوف يصوبونها إلى أسفل حتى قتلوا مئات كثيرة منهم وهم يهمون بالفرار .

« وحين أقول : يصوبونها إلى أسفل ، فذلك لان السيف الذي استعمله خيالتنا لم يكن يجدي فتيلًا ، فقـد كان هؤلاء الاعداء من الحذق والمهارة في استخدام تروسهم بحيث استطاعوا أن يتفادوا كل ضربة صوّبت نحوها .

« وقد شاهدت في ميدان القتال تروساً كثيرة فيها مالا يقل عن عشر فلول أو خمسة عشر من فلول السيوف كل منها ملقى على جثة الميت ، الذي حملها ، والذي كان من الواضح أنه قتل برصاصتين أو ثلاث نفذت إلى جسمه .

«وقد أخبرني الجنود أنهم كانوا ، في كثير من الاحيان ، يضطرون إلى افراغ قرابينتهم (سلاحهم الناري) ومسدساتهم في جسد رجل واحد قبل أن يسقط على الارض صريعا » .

ويحكي وادنجتون قصة رجل من الشايقية ، أصابته خمس رصاصات ومع ذلك ظل يقاتل ، ويصيح في وجوههم قائلا ان في مقدورهم أن يطلقوا النار ولكن ليس في مقدورهم أن يصيبوه بأذى . إلى أن تلقّى جرحه المميت .

وقد عُزي هذا الاستبسال الخارق ، والحمية العسكرية إلى أن فُقَرَا [1] الشايقية قد أكدوا لجيوشهم أن سلاح الغزاة لن يؤثر في أجسامهم . وكان هؤلاء الفقرا قد زودوا المحاربين بأكوام من التراب المبارك لكي ينثروه على أجسامهم فيحدث الاثر المطلوب . ومن ثم تقدموا نحو صفوف أعدائهم الاتراك ، وهم إلى حالة المتهلل الراقص أقرب من حالة المحارب المقاتل ، تبدو على وجوههم سيماء الثقة المطلقة بالنفس والسخرية المفرطة بالاعداء .

ولكنهم أدركوا ، بعد أن دارت رحى الحرب ، أن تلك التعاويذ التي أوصاهم مشايخهم بأن يعتمدوا عليها وأن يثقوا فيها . قد خدعتهم خدعة كانت السبب فِي شقائهم وويلاتهم . فأضمروا

(١) فقرا جمع غير قياسي مفرده فكي (أي فقيه) ومن معانيها في اللهجة السودانية المتعبد أو الزاهد وصاحب التعاويذ والتمائم (المترجم) .

لفقرائهم شراً ، وعقدوا النية على أن ينتقموا منهم انتقاماً مريعاً . فما كادت تنتهي المرحلة الاولى من المعركة ، حتى قبضوا على أسرة الفقرا كلها ، وهي أسرة الدويحية ، وقتلوهم عن آخرهم ، بل خربوا القرية التي كانت هذه الاسرة تقيم فيها ، وهي قرية شيبّه ، بالقرب من مروى .

كانت نتيجة هذه المعركة وبالا على الشايقية ، فانكسرت شوكتهم وفنيت الكثرة الساحقة من عساكر المشاة ، أما الخيالة فقد لاذوا بالفرار تحت امرة شاؤس ، ولجئوا إلى تلال عَمْرى .

وواصل الجيش التركي مطاردة الاعداء إلى أن بلغوا جبل برقل ، وهم ينهبون ويحرقون ويقتلون كل مـــا صادفوه في طريقهم ، ويخربون البلاد بعيدها وفسيحها . وكان هـــذا التخريب الواسع النطاق مخيفـــاً مفزعـــاً . حتى أن الرجال الذين طعنوا في السن ، والصبية الذين كانوا يديرون سواقيهم في سلام وهدوء ، لم يفلتوا من أيديهم ، بل مزقوا أجسامهم في حقولهم ، وتركت مع جثث حيوانهم ، تبلى وتنتن في وسط مزارعهم المهجورة .

وقد مرّ وادنجتون خلال هذه الديار ، بعد الذي أحدثه الجيش فيها ، بأسابيع قليلة ، ورسم لنا صورة بشعة مفزعة لما أصابها من الخراب والدمار .

وبعد انتهاء الموقعة بوقت قصير ، أعلن الملك صبير خضوعه للجيش التركي ، ويعزى هذا إلى السبب التالي :

بعد أن دحر الاتراك الشايقية عند جبل دجر ، وقضوا على استحكاماتهم ، حاولت بنت الملك صبير ، واسمها « صافية » ، أن تشق لنفسها سبيل الهرب من أحد قصور والدها ، فوقعت أسيرة في أيدي فرقة البدو التابعين لجيش الباشا التركي .

وسرعان ما أحضروها بين يدي الباشا ، أملاً في أن يأمر لهم بمكافأة مادية ، فقد كانت « صافية » ، فيما يروى على جانب عظيم من الجمال . ولكن الباشا لم يستغل ما يملكه من حقوق الغزو ، فقد أمر بها أن تلبس فاخر الثياب ، ومنحها كثيراً من الجواهر والحلي ، وحملها على جمل ، ووكل بها حرساً من رجاله الذين يثق بهم ، وردها إلى أبيها مكرمة .

ولكن أباها حين رآها مزدانة بحلية تركية ، ومرتدية ثياباً تركية فاخرة ، خطر له أنها أخذت ثمن خيانتها ، فرفض أن يستردها . ولكنه لم يلبث أن عرف الحقيقة ، فتلقاها بالترحيب ، وقرر على الفور التسليم لاسماعيل ، لانه ، كما يقول ، أصبح لايستطيع أن يحارب رجلاً حفظ عفاف ابنته .

وقد أعلن التسليم مع الملك صبير عدد من الامراء الصغار ، وهؤلاء سمح لهم بالعودة إلى قراهم .

أما الملك شاؤس ، وكان جندياً صارماً عنيداً ، فقد رفض أن يسلم وطلب الهدنة ، وعاد بجيوشه إلى قرب شندي .

وعسكر اسماعيل بجيشه في قرية كريـــة في خلال شهري ديسمبر وينابر ، حتى يمنح جيشه شيئاً من الراحة ، وبعد العدة من المؤن ووسائل النقل استعداداً لحملته التي عزم على تسييرها إلى بربر وسنار . وأخيراً ، في الحادي والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٢١ ، بعد أن جهز جيشه واستكمل معداته ، عبر إلى الضفة اليسرى من النهر ، واستبقى قوة تتألف من ٣٠٠ جندي من المغاربة لحراسة المؤن والاسطول الذي كان يتألف من ١٢٠ سفينة ، واتجه ببقية جيشه إلى الشرق . فسار من نورى إلى كيربكان ، ومنها مضى عبر الصحراء من طريق جوره ووادي « دم التور » إلى الباقير الواقعة على النيل في اقليم الرباطاب (وهي الآن تابعة لاقليم بربر) .

اتجه الباشا من الباقير إلى الجنوب وسار بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل حتى كان في مواجهة شنـدي ، دون أن تصـادفه أية مقاومة ، وفي طريقـه أعلن التسليم له الملك نصر الدين ملك بربر ، والملك نمر ملك شندي ، وجميع الزعماء الصغار التابعين لاقليم بربر .

وفي شندي وجـد الملك شاؤس أن الاستمرار في مقاومـة

الغازي أمر لا طائل تحته ، فعبر النهر في الخامس عشر من شهر مايو ١٨٢١ ، وأعلن خضوعه للباشا هو ومائتان من جنوده .

فلما قبل الباشا هذا التسليم ، تقدم شاؤس اليه راجياً ألا يحرمه هو ورجاله من أسلحتهم وخيلهم . وأن يأذن لهم في أن يظلوا على جبلتهم التي ولدوا بها ونشأوا عليها ، جنوداً محاربين ، وأن يسمح لهم بأن ينخرطوا في سلك الجندية التركية وأن يقاتلوا تحت لوائه .

وقدر الباشا بسالة هؤلاء الجنود التي قاوموا بها جيشه ، فوافقه على طلبه . ومنذ ذلك الوقت انضم إلى جيش الاتراك فرقة تتألف من ١٤٠ شايقيا بقيادة الملك شاؤس العدلانابي الذي عين « بلوك باشي » [١] .

وقد أثبتت هذه الفرقة الصغيرة دليل الجدارة ، وقدمت عن نفسها فكرة طيبة في الحروب التي شنها اسماعيل في سنار وكسلا . ولما رجع اسماعيل من حملاته في الجنوب وجد العبدلاب قد قاموا بثورة في أثناء غيابه ، فانتزعت أراضيهم منهم ، ومنح الشايقية هذه الأراضي بصفة دائمة على شريطة أن يظلوا في الخدمة العسكرية .

وبهذه الحصة من الأراضي ، استولى الملك شاؤس وقبيلته

---

(١) أي قائد فرقة من (الباشي بوزق) وهم الفرسان غير النظاميين .

العدلاناب على مدينة حلفاية التي كانت من قبل ملكا للعبدلاب. وفي حلفاية الى الآن ، تقطن ذرية شاوش وقبيلته . ومنذ ذلك الحين يبدأ تاريخ استيطان طائفة كبيرة من الشايقية في مديرية الخرطوم ، والسواراب في « حجر العسل » ، وفي « مديسيه » ووادي بشاره ، والكادنقاب في « أبو دوم » و « كوداب » و « ود البصل » .

وهنا ينتهي تاريخ الشايقية بحسبانهم شعبا له كيانه ، واندرج في تاريخ الحكم المصري في السودان . واستمرت هذه القبيلة من المحاربين الباسلين ، الذين أثبت الأتراك نشاطهم الحربي حين كانوا أعداء ، وحين كانوا حلفاء ، تقدم دلائل الولاء للحكومة منذ ذلك اليوم الذي أعلن فيه الأمير المحارب شاوش خضوعه في شندي ، إلى ذلك اليوم المحتوم من يناير ١٨٨٥ حين سقطت الخرطوم وزال الحكم المصري - بصفة مؤقتة - عن السودان [١] .

---

(١) هذا تعبير غير دقيق ، فيه ايهام ومغالطة . فالذين حكموا السودان في تلك العهود لم يكونوا من المصريين ، ولكنهم كانوا من الأتراك . ولقد حكم الأتراك مصر كما حكموا السودان . وعانى الشعب المصري منهم كما عانى الشعب السوداني سواء بسواء .

والملاحظ أن مؤلف هذا الكتاب يناقض نفسه مناقضة سافرة . ففي صفحاته السابقة ، كان حديثه منحصراً في الاتراك والكشاف والمماليك وما صنعوه في السودان . ثم لوى ها هنا زمام القول فجأة ، لهوى =

الملحق الأول

فيما يلي جدول مختصر لقبائل الجعليين في السودان ، وهو يبين العلاقات بين الشايقية والقبائل التي تمت اليهم بصلة القربى .

هذه القبائل تسمى « جعلية » نسبة إلى جدهم « ابراهيم جعل » وهو من سلالة عبد الله بن عباس الهاشمي . وقد لقب

= في نفسه ، فوصف حكم هؤلاء الأتراك والكشاف بأنه « حكم مصري » !!

ولم يعد أحد اليوم ، من سكان هذا الوادي ، يجهل أن الحكم في ذلك العهد كان قوامه الأتراك ، وأن الذين دبروا هذا الغزو كانوا م الأتراك .

وإذا كان للشعب المصري نصيب في تاريخ السودان الحديث ، فهو نصيب الأخوة التي لا يمكن أن تختار أسلوب العنف ، ولا يمكن أن تلجأ إلى القوة والسيطرة على الشعب السوداني الشقيق .

لقد كان للشعب المصري آثار سلمية في تاريخ السودان وحضارته من علمية واجتماعية ودينية ولم تكن هذه الآثار قاصرة على العهد التركي وحده بل كانت في جميع العهود التاريخية على سواء . أمـــا الحملات العسكرية التي شنها الأتراك أو شنها الانجليز فيما بعد فان الشعب المصري بريء منها تماماً .

(المترجم)

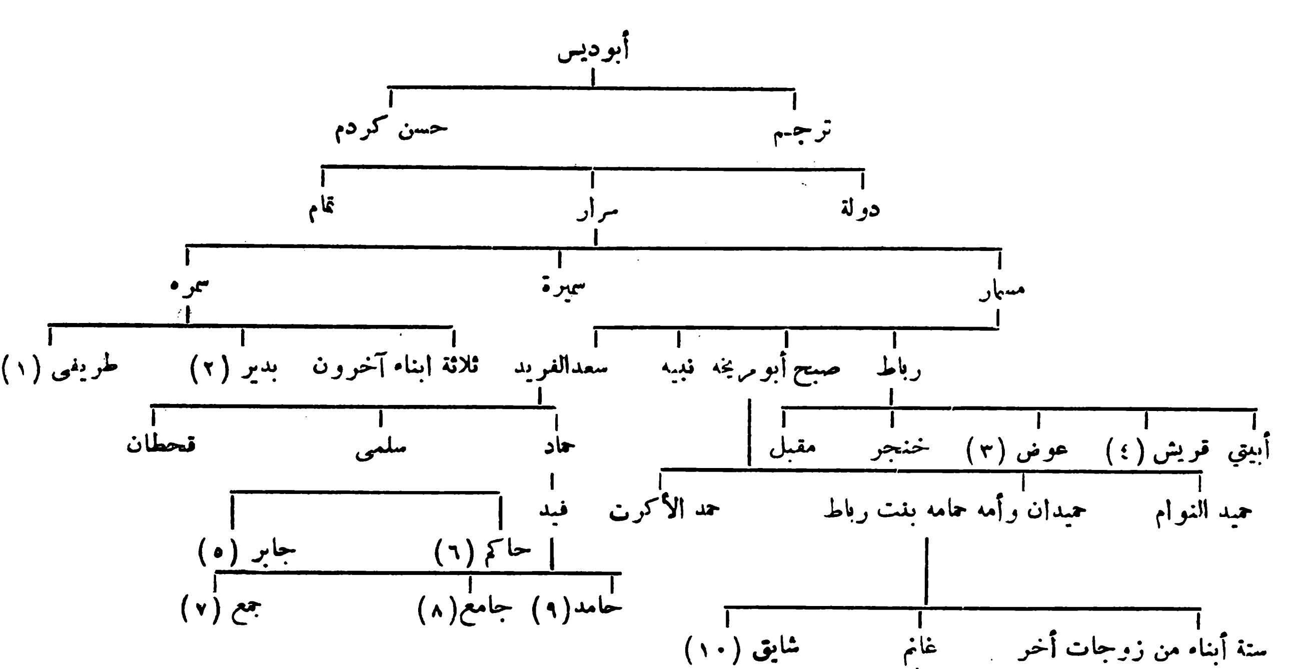
ابراهيم بجعل لأنه كان رجلا كريماً مضيافاً حتى اشتهر بذلك[1].

أما « أبو ديس » الذي نجده على رأس القائمة في هذا الجدول فهو ابن قضاعة بن عبد الله سرقان بن مسروق بن أحمد اليمني ابن ابراهيم جعل .

ومن الملاحظ أن لفظ « جعليين » لم يطلق في بادىء الأمر على قبيلة بعينها ، بل هو اصطلاح جامع لعدد كبير من القبائل لا تكاد تتصل بصلات وثيقة من القربى ، كما أطلق بصفة رئيسية على الذين سكنوا دنقلة وبربر والخرطوم وأقاليم النيل الأبيض . أما اليوم فان اللفظ بوجه عام يستعمل للدلالة على ذرية « ضواب » .

---

(١) تفسير هذا الأمر هو أن ابراهيم كان يقول للاهالي الذين ينضوون تحت لوائه (جعلناكم منا) أي أنكم أصبحتم منا أو جزءاً منا لكم ما لنا وعليكم ما علينا . فلما كثر ترديده لهذه العبارة اشتهرت عنه ، فلزمت اسمه (المترجم) .



أبوديس
ترجم
حسن كردم
دولة
مرار
تمام
مسمار
سميرة
سمره
رباط
صبح أبو مريخه
نبيه
سعدالفريد
ثلاثة ابناء آخرون
بدير (٢)
طريفى (١)
أبيقي
قريش (٤)
عوض (٣)
خنجر
مقبل
حماد
سلمى
قحطان
حميد النوام
حميدان وأمه حمامه بنت رباط
حمد الأكرت
فيد
حاكم (٦)
جابر (٥)
حامد(٩)
جامع(٨)
جمع (٧)
ستة أبناء من زوجات أخر
غانم
شايق (١٠)
جوع (١٢)
ضواب (١٢)
ضياب (١١)

تعليقات على شجرة النسب الواردة في الجدول :

١ - هو جد قبيلة الطريفية .

٢ - هو جد قبيلة القريشاب .

٣ - هو جد قبيلة العوضية .

٤ - هو جد قبيلة القريشاب .

٥ - هو جد قبائل الجوابرة والجابراب .

٦ - هو جد قبيلة الحاكاب

٧ - هو جد قبيلة الجُمَع .

٨ - هو جد قبيلة الجوامعة .

٩ - هو جد قبيلتي الحمده والأحامد .

١٠- هو جد قبيلة الشايقية .

١١- هو جد قبائل الرباطاب والميرفاب والناصراب وعبد الرحماناب والفاضلاب والسريحاب الخ ...

١٢- هو جد قبائل الشاعديناب والمكابراب والزيداب والكتياب وقبائل أخرى كثيرة لا تحمل اسم (الجعليين) .

١٣- هو جد قبيلتي الجميعاب والجموعية .

الملحق الثاني[1]

ابناء شايق وفروع الشايقية

ليس في القوائم التي فحصتها قائمتـان تتفقان في نسب أولاد شايق . ومع ذلك فهي تتفق من حيث عدد الأبناء ، وهو اثنا عشر. وتتفق كذلك في أسماء ثمانية منهم وهم : كادنقا ، أم سالم ، نافع ، شلوف ، حواش ، عون ، سوار ، مريس .

واسم الابن التاسع هو عمارة أو قريش .

وأسماء الثلاثة الباقية تختلف على النحو الآتي :

(أ) قائمة الكابتن جاكسون تجعل الأسماء باعوض ، مرس ، شرنكو .

(ب) رواية العمدة محمد علي بليلو عمدة السواراب ، أنهم عدلان (أو صلاح) ومرزوق وحامد .

(ج) رواية الشيخ محمد صالح أبو دوم من قبيلة الكادنقاب تجعلهم مرزوق ، صلاح ، شِبرْبيل .

كان كادنقا هو الابن الأكبر ، ولكن الروايات تختلف بالنسبة

---

(١) اني مدين في المواد التي استقيتها في هذا الملحق للكابتن أ . س . جاكسون .

الى نظام تتابع الأبناء الباقين ، ولاأحسب أن الموضوع من الأهمية بحيث يستحق منـــا أن نفحص الروايات المتباينة التي ذكرت في القوائم المختلفة .

١ - كان لكادنقا ، جد الكادنقاب ، ذرية قوامها ما يلي :

(أ) صالح ، جد الحنيكاب ، وقد أقام في أوسلى ، حزيمة ، مساوي ، القرير ، عمري (مديرية دنقلة) ، شندي (مديرية بربر) ، العيلفون (اقليم الخرطوم) .

ويتفرع الحنيكاب من المحموداب ، والناصراب ، والقوتاب والشريشاب ، والحسناب والشلاليل .

(ب) صلاح (١) جد الصلاحاب الذين يسكنون في زومة ودبيبة ومساوي (مديرية دنقلة) ، وقوز البسابير (اقليم شندي بمديرية بربر) (٢) وجـد الاسوماب الذين يقيمون في قيلي (مديرية الخرطوم) . (٣) وجد العدلاناب الذين يستوطنون حلفاية الملوك وأبو حليمة وقيلي (مديرية الخرطوم) .

ويتفرع العدلاناب الى مروى و كجبى وأولاد علي والمناوراب.

(ج) حامد جـد الحامـداب الذين يسكنون في حامـداب (مديرية دنقلة)وفي كردوفان حيث يعيشون بدوارحلا.

(د) عبد الدايم (ويعرف أيضاً باسم تُلبُن) وهو جد التلبناب الذين يقيمون في جزيرة تلبناب (مديرية دنقلة)

(هـ) جوُرم جد الجورماب الذين يعيشون في تنقسي وبرقل (مديرية دنقلة) وود البصل (مديرية الخرطوم)

(و) زمام جد الزماماب ، وهم يقيمون في مروي وبرقل وتنسي

(ز) حسين جد الكروساب ، ويقمون في الكرو (بمديرية دنقلة) .

(ح) رغيم جد الرغيماب ، ويقيمون في ود البصل (بمديرية الخرطوم) وكذلك في مديرية دنقلة .

(ط) كوده جد الكوداب ، ويسكنون في كوداب ، وأبى دوم ، وقوز نفيسه (بمديرية الخرطوم) .

(ي) مرزوق (ويروى كذلك انه ابن شايق) وهو جد المرزوقاب الذين يقيمون في تنقسي وكرو (بمديريةدنقلة).

(ك) شرنكو جد الشرنكاب والغريراب الذين يقيمون في برقل (بمديرية دنقله) .

(ل) عيسى جد العيسياب الذين يعيشون في نوري والقرير (بمديرية دنقله) .

وهنالك ولدان آخران من أمـــة سودانية أحدهما (فرج الله) جد الفرجلاب (ويعرفون كذلك باسم الكرا كرة) وهم يقيمون في الكرو وزومـه وبرقل وجزيرة التلبناب (بمديرية

دنقلة) . والولد الثاني (فرج) جد الفرجاب الذين يسكنون في كرو (بمديرية دنقلة) .

٢ ـ أم سالم جدة قبيلة أم سالم التي تقيم في مديريتي النيل الأبيض وبربر ، وجـدة اليعقوباب الذين يسكنون في مديرية سنار . وذريتها من الذكور هم :

(أ) بادي جد البادياب الذين يقيمون في زومه (بمديرية دنقلة) .

(ب) كلشوم جـد الكلاشيم الذين يقيمون في زومه (بمديرية دنقلة) .

(ج) جاده جد الجـداب الذين يقيمون في عمـري (بمديرية دنقلة) .

٣ ـ نافع جد النافعاب الذين يقيمون في مديرية دنقلة وذريته من الذكور هم :

(أ) غاسين جد الغاسيناب ويسكنون في الجريف والدويم بمديرية دنقلة .

(ب) ضيف الله جد الضيفلاب ويسكنون في الحجـير (بمديرية دنقلة) .

٤ ـ شلوف جد الشلوفاب ويقيمون في مديرية دنقلة والقضارف بمديرية كسلا ، وذريته من الذكور هم :

(أ) حاج محمد جد « الحاج محمداب » ويقيمون في الجريف (بمديرية دنقله) .

(ب) علي جد العلياب الذين يقيمون في القرير وكورتي (بمديرية دنقله) .

(ح) عمر الجار ، جد البادياب الذين يقيمون في مَجَل (بمديرية دنقله) .

٥ – حواش جد الحواشاب ويقيمون في أبي دوم وتنقسى (بمديرية دنقله) ، وكوداب وكدرو (بمديرية الخرطوم) ، وبسابير (بمديرية بربر) وذريته من الذكور هم :

(أ) مجن جد المجناب في تنقسي وأبي دوم (بمديرية دنقله) .

(ب) عقرب جد العقرباب في أبي دوم (بمديرية دنقله) .

٦ – عون جد العونية الذين يقيمون في قلاس ، وكورتي والبرصة وجزيرة جنيتي (بمديرية دنقـــله) ، واقليم شندي (بمديرية بربر) . وذريته من الذكور هم :

(أ) الغرباوي جد العونية في جينتي والبرصة (بمديرية دنقله) .

(ب) زين الدين جد الحسناب في اقليم شندى (بمديرية بربر)

(ج) دوانه جد الدواناب في اقليم شندى (بمديرية بربر) .

٧ – سوار جد السواراب ، أقوى فروع الشايقية وأكثرها عددا ، وهم يسكنون في القرير وحزيمـــة والأراك وأوسلى وكوري (بمديرية دنقله) ، وصحراء بيوضة ، وحجر العسل ، ومديسيسه ووادي بشاره (بمديرية الخرطوم) وواد حامـــد والزليتاب وكبوشية (بمديرية بربر) . وأولاده ستة هم :

وصيف وجادات، وهما من زوجته الأولى ، وحمد الله وحسن تمليك من زوجتـه الثانية ، وعايد ونمر من زوجته الثالثة .

(أ) وصيف جـــد الـكافونقا[1] والزليتاب والزراقنه من اقليم شندى (بمديرية بربر) وصحراء بيوضة .

(ب) جادات جـد المشندل في صحراء بيوضـة والقرير (بمديرية دنقـــله) وحجر العسل ومديسيسه ووادي بشارة (بمديرية الخرطوم) .

(ج) حمد الله جد الحمدلاب في القرير والكُرَى (بمديرية دنقله) واقليم شندي (بمديرية بربر) والازيرقاب بمديرية الخرطوم .

(د) حسن تمليك جد التمليك في الأراك وكورى وموره وتكر (بمديرية دنقله) .

(هـ) عايد جـد العايداب من القرير (بمديرية دنقله) ووادي بشاره (مديرية الخرطوم) وجد العطيّلاب في وادي بشاره (مديرية الخرطوم) .

(و) نمر جد العنيناب في حزيمة وأبي دوم كشابي ، وأبي كليوات (بمديرية دنقله) وحجر العسل (بمديرية الخرطوم) .

٨ ـ مريس جد المريساب في مديرية بربر وفي أبي دوم

---

(١) يعتقد بعض الشايقية أن الكافونقا هم سكان دنقلا القدماء .

(بمديرية دنقله) وله ولد واحد وهـو عليت جد العليتاب في تكر .

٩ - قريش جد القريشاب في اقليم شندي بمديرية بربر ويقال ان أولاده ثلاثة :

(أ) أبو دود جد الأباديد في كريمه ومروى بمديرية دنقله .

(ب) صالح جد الصالحاب في كريمه ومروي بمديرية دنقله .

(ج) أبو ناب جد الأبوناب في كريمة ومروى بمديرية دنقله .

١٠ - عامر جد العامراب في كريمة والكُرّى وعامري (بمديرية دنقله) . ويروي البعض أنه ابن قريش ، ويروي آخرون أنه ابن عمارة ابن شايق .

١١ - باعوض جد الباعوضاب ويعيشون في عمري وبرقل بمديرية دنقله ، ويقال أيضاً أنه ابن شايق وان ذريته من الذكور هم :

(أ) عجيب جـــد العجيباب في عمري وبرقل (بمديرية دنقـله) .

(ب) علي جد القططية في برقل (بمديرية دنقله) .

(ج) محمد خير جد الأمناب في الوكابية (بمديرية دنقله) .

١٢ - مرس جد المرساب في موره والأراك بمديرية دنقله ، ويروى أيضاً أنه ابن شايق وأن ذريته من الذكور هم :

(أ) أبو الحسين جد الحسناب في الأراك .

(ب) رحمه جد الرحماب في الأراك .

١٣ - شرنكو ويروى أيضاً أنه ابن شايق وانه توفي ولم يعقب .

ويعد السوارAب والكادنقاب ، بلا جدال ، أكثر قبائل الشايقية عدداً وأعظمها أهمية . وكان العونية فيما سبق قبيلة قوية ، ولكن منازعاتها المستمرة مع القبيلتين السابقتين ، أدت الى تشتتها ونقص عددها وثروتها . والسبب في تلك المنازعات هو أن شايق - فيما يروى - سافر مرة الى دارفور وقدم هدية من الخيل للسلطان تنقار سلطان جبل حريس ، فسر بها السلطان كثيراً ، وأكرم وفادة شايق وعامله في بلاطه معاملة الملوك لمدة عام وزوجه من احدى بناته .

وولد شايق من ابنة السلطان ولدا سماه سوارا . ولما عزم شايق على الرحيل من بلاط السلطان ، ترك زوجته وولده في كنف السلطان ، ووعده بأنه سيعود اليها ليأخذهما معه الى دنقله حالما يهيء لهما مكانا فيها . ورجع شايق الى دنقله ولكنه لم يستطع العودة الى دارفور فلما حضرته الوفاة ، دعا بابنه الأكبر ، وأخذ منه عهداً بان يذهب إلى دارفور ويبحث عن سوار وأمه ويحضرهما الى دنقله . وسافر كادنقا الى دارفور ، فوجد السلطان « تنقار » قد مات ، وكان خليفته على السلطنة معادياً للشايقية ، فلم يتمكن من البحث عنها علانية . وحدث ذات يوم ، بينما كان كادنقا جالساً في سوق قرية مجاورة لجبل جريس وكان

يأكل بلحا ، أن احتشد جمع من الصبية حـــوله وأخذوا يتطلعون اليه . فجعل يتسلى بالقاء حبات من البلح الى الصبية ومراقبتهم وهم يتدافعون بالمناكب ويتخاطفون البلح . ولاحظ كادنقا أن صبياً منهم قد وقف بعيداً لا يصنع صنيعهم ، فدعاه وسأله لماذا لم يشارك رفاقه في هذا اللهو . فأجابه الصبي بأنه غريب عنهم ، ولهذا لم يدخل معهم في ذلك اللهو . فاهتم كادنقا بأمر هذا الصبي وجعل يسأله حتى استيقن انه سوار . وحينئذ أخذ يعد العـدة مرا لابلاغ أمه الخبر ، ثم السفر بهـــما الى دنقـــله .

ولما كان كادنقا قد أظهر ازاء هذا الصبي رعاية وعطفا ، فقد أوغر هذا التصرف قلب بقية أبناء شايق ، عون وحواش فتآمرا عليه ، واختطفا الصبي وأمه وباعاهما بيـع الرقيـــق الى قبيلة عربيـة تقطن بجوار كورسكو .

فلم يكد كادنقا يسمع هذا الخبر ، حتى اقتفى آثار القبيلة التي اشترت سوارا وأمه ، واشتراهما منها وعاد بهما .

أما الصبي سوار فهو جـــد السواراب ، ولهذا السبب نجم نزاع مرير بين السواراب والعونية ، واستمر الى العصور الحديثة وقد قاسى العونية من جراء هذه المنازعات الشيء الكثير .

الملحق الثالث

« رحلة في سنة ١٦٩٨ كما وصفها م . بونسيه »

ننقل النبذة التالية من التمهيد الذي قدمته الترجمة الانكليزية لرحلات بونسيه ، وهي مطبوعة في لنـــدن في سنة ١٧٠٩ .
« مسيو بونسيه طبيب ماهر عاش في القاهرة ، عاصمة مصر ، ومن الشواهد الواضحة الدالة على قدرته ومهارته في فنه أن امبراطور الحبشة ، حين أصابه مرض عضال كان يهدد حياته ، قد اقتنع بأنه أمهر طبيب يمكن أن يتولى علاجه » .

سافر بونسيه من القاهرة في ١٠ يونيه ١٦٩٨ ، يصحبه « حاج علي » أحد ضباط امبراطور الحبشة ، والأب تشارلز فرانسيس اكسافيريوس دي بريفيدنت أحد المبشرين اليسوعيين ، وقد سافر من طريق منفلوط ، وابناه ، وحلاوى ، وشيب ، وسليمة .

يقول بونسيه نفسه : « في السادس والعشرين من اكتوبر ١٦٩٨ وصلنا الى « مشو » وهي ميناء طيبة فسيحة تقع على الضفة الغربية من نهر النيل . وفي هذه البقعة ، يؤلف النهر

جزيرتين[1] ممتلئين بالنخيل وأشجار السنامكي والحنظل . وتقع مشو في ولاية الفونج ، ومشو هذه هي المكان الوحيد المعمور بين هذه البقعة وحلاوى . وولاية الفونج هذه تابعة لملك سنار وهي أول بلاد البرابرة . ولما عرف الارباب ، وهـو لقب حاكم هذه الولاية ، أن امبراطور الحبشة قد أرسل في طلبنا دعانا للذهاب الى أرجوس[2] حيث يقيم . وتشرف هذه القصبة في مواجهة مشو على الجانب الآخر من النيل ، وقد انتقلنا اليها في قارب . وتلقانا الحاكم بترحاب بالغ ، وأكرم وفادتنا يومين كانا راحة ومتعة لنا بعد أن كنا قد قاسينا متاعب جمة في رحلتنا . وفي أرجوس أيضاً يسكن شيخ الجباة وهو ابن ملك دنقله .

« ولا يظهر هذا الشيخ أمام الناس إلا وهو ممتط ظهر جواده ، وقد تغطى الجواد بمائتين من الاجراس النحاسية الصغيرة التي كانت تحدث مع الحركة صلصلة شديدة ، ويلحق به اثنا عشر فارساً ومائتا جندي مسلحين بالحراب والسيوف . وقد زارنا في خيامنا ، حيث قدمت له القهوة وأدى اليه الناس العوائد ، وهي عبارة عن صابون وأقمشة من الكتان . وشرفنا بدعوتنا ، في

---

(١) هما أرتيقاشا وبولينارتي .

(٢) هي أرجو ساب وفيها يقيم نسل أمراء أرجو إلى يومنا هذا .

اليوم التالي ، لتناول العشاء عنده . فذهبنا في الموعد المضروب . فرأينا قصراً فسيح الارجاء مبنيـاً بالآجر . له جدران عالية جداً ، تحدق به ، على مسافات معينة ، قلاع شامخة خالية من المنافذ ، ذلك أن هذه البلاد لاتستخدم المدافع وانما تستخدم البنادق .

« بعد أن قضينا ثمانية أيام في مشو غادرناها في الرابـع من نوفمبر ، ووصلنا في الثالث عشر من الشهر نفسه إلى دنقلة [١] . وكل البلاد التي مررنا بها في طريقنا إلى دنقلة ، بل التي تقع كذلك على طول الطريق إلى سنار ، هي بلاد ممتعة للغاية ، ولكن لا يتجاوز اتساعها ثلاثة أميال (فرسخ) . أما ما وراء هذه المنطقة فصحارى موحشة . وينحدر النيل في خلال هـــذا السهل الممتع ، له ضفاف عاليات بارزات . ومن ثم لم يكن الفيضان في هذه التربة هو الذي يجلب الخصب والنماء ، كما يحدث في مصر ، وإنما هو الصناعة والأعمال التي يقوم بها الأهالي . ولما كانت الأمطار تهطل نادراً في المنطقة ، فقد عني الأهالي بالسواقي التي تديرها الثيران [٢] ، لاستخراج مقادير هائلة من الماء تجري في قنوات واسعة في خلال أراضيهم ، يصنعونها لهذا الغرض .

---

(١) أي دنقلة العجوز .

(٢) كثيراً ما سمعت في دنقلة ، أن السواقي أدخلها الأتراك هناك في أيام الغزو (١٨٢١) ولكن هـــذا النص يدل على مدى خطأ هذه الرواية .

ثم يأخذون منها حاجتهم حين تواتي الفرصة لري أراضيهم . ولولا هذه الطريقة ، لاستحالت أراضهم قاحلة جرداء .

« والفضة ، في ميدان التجارة ، لا قيمة لها في هذه البلاد . فالمعاملة قائمة على تبادل السلع كما كانت الحال في العصور البدائية . فالمسافرون يقايضون بالفلفل واليانسون وحبة البركة والقرنفل والفراء المصبوغة بالزرقة والعطور الفرنسية والمحلب المصري ونحو ذلك مما يحتاجون اليه . وهم لا يأكلون من الخبز إلا ما صنع من الذرة ويصنعون منها نوعاً من الجعة الخاثرة لها طعم رديء للغاية[1] . ولما كانت عرضة للفساد إذا طال بها الزمن ، اضطروا أن يصنعوها طازجة في كل ساعة . والرجل الذي يمتلك شيئاً من خبز الذرة وقرعة ملأى بهذا الشراب الكريه الذي يشربونه حتى يلعب برؤوسهم ، إنما يعد نفسه سعيداً يجلب لنفسه طرباً عظيما .

وبهذا الغذاء الضئيل ، يتمتع الناس هنا بصحة جيدة ، بل هم أكثر عافية وأشد قوة من الأوربيين .

« وبيوتهم من الطين ، سطوحها واطئة مغطاة بقصب الذرة ، أما خيولهم فهي حسنة المنظر للغاية ، ومناسبة جداً للركوب .

« وللخيل سُرُج مرتفعة جداً في مقدمتها ومؤخرتها جميعاً ، وهي تتعب الحصان كثيراً ،

(١) المريسة وتسمى عند أهل دنقلة مرسيكي .

« والشخصيات البارزة ، حاسرو الرؤوس ، وشعرهم مجدول في هيئة حسنة . وكل ما يلبسونه يتألف من نوع من الثياب الرديئة لا أكمام له . وسيقانهم عارية ولا يلبسون في أقدامهم إلا نعالاً مجردة ومثبتة بأربطة .

« وعامة الناس يلفون أنفسهم بثوب من الكتان ، يرتدونه بمائة طريقة مختلفة ، والأطفال عراة غالباً .

« والناس جميعاً يمتلكون الحراب ويحملونها معهم دائماً . ولها في أطرافها سنان تشبه الصنانير . وبعضها ممشوق للغاية . والذين يحملون منهم السيوف يتنكبونها . والأيمان واللعنات شائعة جداً بين هؤلاء القوم الجهلاء . وهم إلى ذلك قوم غاوون ليس لديهم شيء من التواضع ولا المجاملة ولا التدين . وبالرغم من أنهم يعتنقون الاسلام في الوقت الحاضر ، فانهم لايعرفون منه إلا مجرد مراسم شكلية يرددونها في كل مناسبة . ومما يستدعي الاسى حقاً ، ومما هاج الدموع في عيني صديقي العزيز الاب بريفيدنت ، أن هذه البلاد منذ وقت غير قصير كانت بلاداً مسيحية ، وأنها لم تختف المسيحية إلا لحاجتها إلى رجل كان من الغيرة والحماس بحيث يكرس نفسه للتبشير في تلك البلاد المهجورة [١] .

(١) لاحاجة بنا إلى القول بأن (بونسيه) يتكلم بوجهة نظرة الخاصة . وهو ، كما لايخفى ، طبيب مسيحي مبشر ينتمي إلى الطائفة اليسوعية . (المترجم)

« وفي طريقنا عثرنا على عدد كبير من الصوامع والكنائس ، الخربة نصف تخريب . وقد قمنا برحلات قصيرة من مشو إلى دنقلة حتى ننعش نفوسنا بعد أن كابدنا تلك الرحلات الطوال التي مررنا فيها خلال الصحاري .

« وقد نقص عدد سكان هذه البلاد بتأثير الوباء الذي وقع منذ فترة لاتتجاوز سنتين .

« وكان هذا الوباء عنيفا جداً في القاهرة في سنة ١٦٩٦ عندما كنت هناك ، حيث قدمت نفسي لخدمة المصابين ، وقد أكدوا لي أن الناس كانوا يموتون يومياً حتى بلغ عـــدد الموتى عشرة آلاف .

« وقد وقعت هذه الكارثة المفزعة في مصر العليا كلها وفي بلاد البرابرة . حتى اننا وجدنا عدة مدن ، وعدداً كبيرا من القرى خالية من السكان ، كما وجدنا مديريات شاسعة ، كانت يوماً ما غنية خصبة ، قد أتلفت اتلافاً ، وصارت خراباً بلقعا[١] .

« ولم تكد تلوح مدينة دنقله أمـام أعيننا ، حتى تركَنا قائد القافلة وبادر إلى استئذان الملك في أن يسمح له ولرفـاقه بالدخول في المدينة . فاذن عن طيب خاطر . وكنا حينئذ في قرية تعد ضاحية لمدينـة دنقله ، فعـبرنا النهر في قارب كبير

---

(١) قارن هذا بما ورد في الفصل الثاني في صفحاته الاولى .

أعده الأمير ليستخدمه العامة . وكل البضائع التي تنقل يؤخذ عنها رسوم ، أما المسافرون فلا يدفعون شيئاً . وتقع مدينة دنقله على الضفة الشرقية من النيل ، فوق منحدر تل رملي مجدب . وبيوتها مبنية بناء رديئاً ، وطرقاتها شبه مهجورة ، معرضة للفيضان يأتيها من الجبل . وقصر الملك في وسط المدينة تماماً . وهو قصر كبير فسيح ، ولكن تحصيناته ضعيفة لا يعتد بها . وهو مبعث رهبة في نفوس العرب الذين هم سادة هذه المنطقة حيث مُنحت لهم الحرية في أن ترعى ماشيتهم في أرضها على أن يدفعوا جزية ضئيلة للمَلِكْ ، ملك دنقله .

« وكان لنا الشرف في أن نأكل مع هذا الأمير عدة مرات ولكن كانت مائدتنا مستقلة . وعندما سمح لنا بالزيارة الأولى ، كان يرتدي ثوباً من القطيفة الخضراء سابغاً إلى الأرض . وله حراس متعددون . فالذين يلازمونه يحملون سيوفاً طويلة في أغمادها . أما الحرس الخارجي فيحملون أنصاف رماح . وقد زارنا هذا الأمير في خيمتنا ، ولما كنت قد عالجته ببعض الأدوية فأثمر فيه العلاج ، دعانا للنزول في ضيافته ، في البلاط ، ولكن لم يكد يعرف ارتباطنا بامبراطور الحبشة ، حتى تسامح فلم يجبرنا على البقاء . والملك وراثي ، وهو يؤدي الجزية لملك سنار .

« رحلنا من دنقله في السادس من يناير سنة ١٦٩٩ ،

وبعد أربعة أيام دخلنا مملكة سنار . وقد استقبلنا ابراهيم على الحدود ، وهو أخو وزير الملك الأول . وكان استقباله كريماً، وقام بالنفقات إلى أن وصلنا إلى بقعة طيبة على النيل حيث كان في صحبتنا . وقد بلغنا في الثالث عشر من يناير .

« ولما كان الأهالي الذين يقيمون عبر مدينة كورتي ، على نهر النيل [1] قد أعلنوا الثورة على ملك سنار ونهبوا القوافل التي تمر خلال بلادهم ، اضطرت القوافل الى أن تشق طريقها بعيداً عن ضفاف النهر ، وأن تتجه في مسيرها بين الجنوب والغرب [2] لتخترق صحراء بيوضة الكبرى التي يستغرق اجتيازها ما لا يقل عن خمسة أيام مهما يتخذوا من السرعة . وهذه الصحراء ليست موحشة كصحراء ليبيا حيث لا يجد المرء فيها الا الرمال . ففي صحراء بيوضة يلتقي المسافر من حين لآخر بالحشائش والشجر وبعد أن عبرنا الصحراء التقينا مرة أخرى بالنيل عند الضريرة [3] وهي قرية هامة ، حيث استرحنا بها يومين وهذه بلاد وافرة الخصب . ومن المحتمل أن وفرة خصوبتها هي التي جعلت السكان يطلقون عليها اسم « بلاد الله » .

« وغادرنا البلاد في السادس والعشرين ، وانعطفنا جهة الغرب .

---

(١) يعني الشايقية .

(٢) ينبغي أن يكون الشرق بدلاً من الغرب .

(٣) في مديرية بربر ، باقليم شندي .

ولم نجد في طريقنا أثراً لقرية ما ، ولكن السكان الذين يقيمون في خيام ، يمدون المسافرين بما يحتاجون اليه . وبعد مضي بضعة أيام في رحلتنا ، التقينا بالنيل مرة أخرى قريباً من قرّي[1] . وهناك يسكن أحد الحكام[2] ، ومهمته الرئيسية هي فحص ما إذا كان في القوافل التي ترد من مصر أي شخص مصاب بالجدري لأن هذا المرض ليس أقل خطورة ولا أقل تدميراً في تلك البلاد من الطاعون

« وقد أظهر هذا الحاكم نحونا مجاملة خاصة تقديرا لعرش الحبشة كما تدل على ذلك عباراتهم عندما كانوا يذكرون ذلك الامبراطور وقد أعفانا من الحجز في المحجر الصحي الذي كانوا يتخذونه عادة في ذلك المكان الذي هو معبر للمسافرين في النيل »

---

(١) في الكوداب ، في مواجهة قرى ، وتقع عند الشلال الخامس .

(٢) أحد شيوخ العبدلاب .

محتويات الكتاب

صفحـة

مراجع البحث

1. تاريخ السودان لنعوم شقير

2. ابن بطوطة - رحلته

3. مخطوطات عربية عن تاريخ السودان المختصر

4. Browne, W. G. — Travels in Africa, Egypt, and syria, 1792 — 8 (London 1799)

5. Bruce, J. — Travels to discover the Source of the Nile, 1768 - 73 (London, 1805).

6. Budge, W. — The Egyptian Sudan.

7. Bruckhardt, J. L. — Travels in Nubia. (London 1819).

8. Cailliaud — Voyage a Meroe.

9. English, G.B. — Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under Ismael Pasha. (Boston 1823).

10. Lane — Poole. — A History of Egypt in tha Middle Ages.

11. Lepsius — Nubische Grammtik.

12. Poncet — Journey to Eethiopia.

13. Quatremere — Memoires Historiques sur l' Egypte.

14. Russel — Nubia and Abyssinia.

15. Waddington and Hanbury, — Travels in Fthiopia.